www.liilas.com

{doode}

روايات أحلام

منتديات ليلاس الثقافية

ثمر في الرماد

روايات أحلام

منتديات ليلاس الثقافية

قمر في الرماد

نبشت شيلا رماد قلبها ولم تجد إلا عاطفة واحدة: الحقد!.. بدا لها أن أحاسيسها الباقية تحولت رماداً مع كل ممتلكاتها وذكرياتها، ولم ترحل معها ليلة الفرار من القصر... لم تستطع حتى أن تحزن على موت عمّها الحبيب، ولم يتحرك في داخلها سوى شعورها بالكراهية تجاه المسؤول عن هذا كله، القرصان..

عندما عرض عليها ميل ورايت ضيافته، قبلت على أمل أن تهاجم عدوها في عقر داره، ولكن على مَنْ يريد أن يهاجم قرصاناً أن يتعلم فنون الإبحار لئلا تغرقه بحار العيون!!

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الأردن ١ د	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١٠٥د.	السودان
الكويت ٥٠٠ف.	السعودية ٧ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

www.liilas.com

{doode}

روايات احلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة
والنشر والتوزيع ش.م.م.
ص.ب: ٨٢٥٤/ ١١ - بيروت - لبنان.

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

جميع حقوق الطباعة والنشر والاقتباس والتأليف محفوظة للشركة

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

تنفيذ وطباعة مؤسسة دلتا للطباعة والنشر
حارة حريك ت: ٨٢٣١١٨ - ٢٨٧١٥٨/٠٣

١ - ليلة الهروب

ليلة العاصفة ليلة ستتذكرها شيلا سوليڤان طالما بقيت حية. فقد غيرت مجرى حياتها تماماً، وكانت أكثر الليالي رعباً.

بدا الطقس طوال أيام الأسبوع رطباً للغاية، وكأنه ينذر بوقوع العاصفة ويمهد للانفجار المريع.. تلك الليلة أومضت شاشة التلفاز وانقطع البث مرات عديدة، حتى أن العم جايسون نصحها بإطفائه، ثم انقطع إرسال الراديو، وتقوقعت شيلا في أحد المقاعد الجلدية ذات الذراعين، تقرأ كتاباً، وتقضم قطع البسكويت والجبن وتحتسي الحليب الساخن.

لا شيء كان ينذرها بما تحمله الليلة لها.. هذه الغرفة التي تمضي فيها عادة أيامها.. للسنة الأخيرة لم يكن هناك سواها والعم جايسون وهكذا كانت تلك الليلة.. حين أشارت عقاربُ الساعة إلى العاشرة والنصف، نهض العم من كرسيه العالي الظهر قائلاً:

- حسناً.. سأذهب إلى الفراش.

- وأنا كذلك.

كانت قد سئمت من مواصلة القراءة في الكتاب الذي يتحدث عن جريمة قتل غامضة.

قال العم جايسون:

- أرجو أن تكوني بخير..

كان قد تعود أن يقول لها هذا كل ليلة، وعادة ما كان يبدو متعباً لكنه مؤخراً بدا متعباً بشكل مستمر، وابتسمت له، كما تفعل كل ليلة، وقالت:

- تصبح على خير.

كان عليها أن تقول وداعاً وللأبد كما كان عليها أن تخبره عن مقدار حبها له فقد كانت هذه آخر فرصة لها. كان عليها أن تأخذ بذراعه وتخرجه من القصر.. كان يجب عليهما معاً الهرب للنجاة بنفسيهما.. لكنها لم تكن تدري..

ولهذا قامت بما تعودت القيام به كل يوم.. أطفأت الأنوار، أسدلت الستائر وتطلعت عبر الخليج إلى ذلك المنزل الذي ظلت نوافذه مضاءة، ففي القصر تبقى معظم النوافذ موصدة، ولا تفتح أبداً. لكن، كل شيء في ذلك المنزل كان متألقاً.

تلمست طريقها في الظلام إلى المطبخ.. كانت تعرف كل شبر من الطريق، ثم رفعت صينية العشاء استعداداً للصباح، وصعدت السلم الخشبي العريض عبر الرواق المؤدي إلى غرفة نومها.

كانت غرفة جميلة غطيت جدرانها بورق حريري متموج زهري اللون ووضعت فيها بعض قطع الأثاث من طراز لويس الخامس عشر.. عدة قطع بحالة جيدة بقيت للعائلة هنا، ولطالما أحست شيلا بالراحة حين تدخل غرفتها وتوصد الباب خلفها.

مرت عائلتها بأوقات عصيبة أخيراً.. فلقد كانت عائلة سوليڤان من سكان المنطقة الأرستقراطيين.. لكنهم في هذه السنوات الأخيرة، فقدوا كل ثروتهم بشكل مفاجيء، ولم يتبقى لهم في هذا العالم سوى واجهة رثة بالية.

كانوا يحصلون على بعض المال من صندوق الائتمان.. ولم يكن العم جايسون يفكر أبداً ببيع البيت والرحيل من هنا.. وعلى أي حال، لن يرغب أحد في شراء كومة من الحجارة مبنية بالأسلوب القوطي الذي يعود إلى القرن الثاني عشر. لقد بناه أحد مؤسسي عائلة سوليڤان في أوائل العهد الڤيكتوري، على أنقاض منزل جورجي الطراز ليصبح غير قابل للتحويل لأي غرض كان.. هكذا أقفلا الغرف، وسكنا المطبخ وغرفة جلوس صغيرة، وتحركا في المنزل مثل حيتي فول في وعاء كبير.

في يوم ما لا بد وأن يزول هذا المنزل. ولكن شيلا لا يمكنها أن تتصور فكرة العيش في مكان آخر، فقد ولدت، وعاشت طوال حياتها هنا.. وهي تذكر أن الغرف كانت مليئة بالخدم والأصدقاء.. كانت تتذكر كل الصور

واللوحات التي كانت تغطي هذه الجدران.. وكذلك الأثاث الذي لم يعد موجوداً. لكنها لم تضيع وقتها بالندم، فهي ما زالت شابة وقوية ومعظم الناس يتعرضون لمثل هذه الظروف الصعبة، وحين قال شقيقها ميتشل:

ـ لا يمكنك قضاء بقية حياتك في هذا القصر الواسع، لماذا لا يبيعه العجوز؟ فقد يرغب فيه أحد.

ضحكت:

ـ لم يتقدم أحد عرضاً بعد.. وأعتقد أننا سنتلقى عرضاً في يوم ما. ولكن عليهم أن يحملونني إلى الخارج وأنا أصرخ.

لكن العم جايسون لم يكن يفكر ببيع قصر بيلبون وهو بكل تأكيد لن يقبل بنصيحة ميتشل.. كان لا يزال يلوم ميتش لاستقالته من مؤسسة العائلة، واللحاق بنجمة إلى عالم أفلام التلفزيون، رغم أن ميتشل كان يكره الانحباس في المكتب وطالما أضجرته الأعمال الهندسية وكادت تسلبه عقله.

ولم يكن بمقدور ميتش أن ينقذ المؤسسة.. وكان البيع سيتم لا محالة حتى ولو كان ميتش قريباً الآن من العم جايسون، بدلاً من أن يكون في الجهة الأخرى من العالم، يصور فيلماً في أبو ظبي.. لكن الهوة التي تفصل بين الاثنين اللذين تحبهما شيلا كانت تحزنها كثيراً.. ميتش كان يعالج الأمر بمرح، لكن «هرويه» لا زال يحزّ في نفس العم جايسون، الذي كان يحافظ على وقاره عندما يأتي ميتشل إلى المنزل.

لم يكن القصر منزلاً لميتش على أي حال.. فشيلا والعم جايسون يسكنانه وحدهما الآن. والجزء الذي كان معداً للسكن منه أصبح فارغاً.. وحتى الشهر الماضي، كان هناك امرأة تساعدهما في تدبير شؤون المنزل، ورجل يعتني بالحديقة. لكنهما تركا الخدمة بعد ستة أشهر، ولا تستطيع شيلا أن تلومهما. فقد كان الراتب منصفاً، لكن، بالمقابل كان هناك الكثير من العمل المنهك.

كانت الأمور مختلفة جداً عما هي عليه اليوم، فعندما كانت شيلا وأخيها ميتشل يعودان من مدرستهما الداخلية كان القصر في أوج ازدهاره.. كانت العطلات المدرسية عبارة عن مغامرات في المنزل الكبير.. كان البحر والشاطيء الوعر ملعباً لهما، والعم جايسون حكيم متزن ولطيف..

كانت طفولتها رائعة فرغم أن المدرسة الداخلية لم تكن سيئة، لكنها كانت تنتظر بفارغ الصبر لتعود إلى القصر وتتولى إدارته بنفسها.. وكان بإمكانها أن تديره بشكل جيد، تنظم حفلات العشاء، وتشرف على إقامة غداء العمل، تنظم المطابخ والحدائق وتجعل المنزل أكثر جمالاً والحدائق أكثر ازدهاراً.. لكنها.. ما إن عادت إلى القصر نهائياً، حتى وقعت الكارثة.

لا بد أن الكارثة كانت واقعة بالفعل، والسيف كان مسلطاً على الرقاب، لكن شيلا وميتش كانا في مدرستهما، فلم يلاحظا شيئاً.. كان ميتش يكبرها بسنة واحدة، وكانا يتيمين منذ كانا طفلين، رباهما عمهما، وكان من المفهوم دائماً أن ميتشل سيدير أعمال العائلة في مؤسسة الهندسة، وأن شيلا ستدير القصر.

لم يسأل أحد ميتش ما إذا كان هذا ما يريده.. مع أنه قد تولع بالتصوير منذ أول كاميرا اشتراها، وأول غرفة مظلمة لتحميض الأفلام أسسها في غرفة مخزن بأعلى القصر.

أصبحت شيلا في الثانية والعشرين الآن، ومنذ سنة ونصف غادر ميتشل المنزل، وبعد سنة أشهر فقط، تم الاستيلاء على المؤسسة.. وحتى لو كان موجوداً فإنه لم يكن ليقدر أن يمنع هذا.. وكان من الجيد أنه يشق طريقه بنجاح في عمل يحبه. فالأيام الذهبية لآل سوليفان وبلبون كاستل كانت قد انتهت.

أدارت شيلا القصر بكفاءة، ولوحدها تقريباً.. الطبخ، والتنظيف والاهتمام بالحديقة.. وكانت منهمكة في عملها إلى حد كبير، وسعيدة إلى حد كاف. مع أنها شعرت بالقلق الشديد على العم جايسون بعدما أصبح دون عمل أو نفوذ بذكر.

لقد قاتلت من أجل البقاء، فأبقت على بعض الغرف التي بإمكانهما السكن فيها ومنعت نفسها من التفكير بما سيأتي به الشهر القادم أو السنة القادمة.

بدأت العاصفة وهي تخلع ملابسها.. سمعت زمجرة الرعد القادم من جهة البحر، وقررت أن لا تفتح الستائر.. فهي لا تنزعج كثيراً من

العواصف، وستكون فرصتها في نوم عميق أكبر فيما إذا لم ترَ البرق.. أحست بالنعاس، وتثاءبت وهي تتمطى، ثم ارتدت قميص النوم وردي اللون.

أظهرت الصورة المنعكسة من المرآة الإيطالية القديمة ذات الشكل البيضاوي، فتاةً أطول مما هي عليه.. لها جسد رشيق وساقين طويلتين كما بدا عنقها طويلاً وعظام الكاحلين والبدين ضيقة. إنها سيدة عريقة النسب، يمكن التعرف عليها من خلال عشرات اللوحات والصور المنتشرة في أنحاء المنزل، والتي تعود إلى ثلاثة مئة سنة.. جمالها كذلك، فشعرها أسود، وجهها بيضاوي شاحب البياض، مزين برموش سوداء كثيفة، وأنف مستقيم وفم مطبق بحزم، وأسنان صغيرة متساوية بيضاء.

كانت تعابير وجهها هادئة متزنة كما كانت تبدو قاسية القسمات يصعب تكديرها كما يصعب المزاح معها، كانت شيلا سوليفان في ثوب النوم القطني، والقدمين الحافيتين، وهي تستعد للنوم، سيدةً تقدر قيمة نفسها ومركزها وتتوقع من العالم أن يتصرف معها على هذا الأساس.

لكن ابتسامتها قد تكون مفاجئة للجميع.. يمكن أن تحولها، وتضفي عليها لمسة إثارة ومسحةً وحشية، تجعل المرء يتساءل ما إذا كان الوجه المكتمل الهادىء هو مجرد قناع تختفي وراءه صورة الفتاة الحقيقية.

أدركت أن لا مجال للنوم وسط هذه العاصفة.. فما إن أصبحت فوق الرؤوس حتى بدت كجحيم مفتوح.. حتى ويداها فوق أذنيها، كادت تصاب بالصمم من صوت الرعد الذي لا يتوقف، وشعرت كأن البرق ينير السماء، وينعكس كالنار البيضاء فوق البحر..

أحست بالصاعقة، كما لم تشعر بها من قبل، مرعبة، هادرة.. نظرت إلى السقف مذعورةً ثم تكورت في فراشها وبقيت فيه لدقائق تحاول تهدئة نفسها، عرفت أن صاعقة قد ضربت المنزل، لكن بعد الضربة.. لم تتوقع خطراً مباشراً.

القصر منزل كبير.. وهذا أمر مخيف ومرعب.. فلا بد أن شيئاً مزعجاً شريراً قد حصل في مكان ما.. والله وحده يعرف أين. توقعت أن يكون محصوراً في جناح صغير معزول.

لكنها لم تستطع البقاء حيث هي، فما من مجال للنوم إلى أن تهدأ العاصفة.. ستنزل إلى تحت، وتتمنى أن يلحق بها العم جايسون لأنها تشعر بالتوتر.

كان الضجيج لا يوصف، الرعد المدمر وهدير الريح المزمجرة كان طاغياً فلم تجرؤ على ملامسة أزرار الكهرباء، فتقدمت إلى النوافذ لتزيح الستائر كي يدخل ما يكفي من الضوء لتتمكن من التقاط روبها وخفها.. لكن قبل أن تبلغ نافذة غرفتها، انفتح باب غرفتها وتدفق الدخان بينما دخل العم جايسون يصرخ بها.

ـ شيلا.. بسرعة!

كان الهدير صادراً من النار واستطاعت أن تشمّ رائحتها.. وأن تحس بها، الرواق من خلفه كان بلون اللهب المتوهج.. شهقت:

ـ يا إلهي!

ومعاً شقا طريقهما بصعوبة عبر الدخان الخانق، يتعثران، ويكادان يقعان فوق السلم العريض.. بوصولهما إلى الأسفل، نظرا إلى بعضهما، عالقان في كابوس واحد.. كان اللهب يمتد فوقهما.. وقالت:

ـ يجب أن أتصل بفرقة الإطفاء.

أمسك العم بذراعها:

ـ لا وقت لدينا.

وجرّها إلى الخارج.. وكان محقاً.. فالدخان كان يندفع وكأنه الضباب السام.. المنزل كان عبارة عن فخ ممیت، واندفعا نحو الباب الكبير، يرفعان المزلاج، ويديران المفتاح، ليخرجا إلى ظلام الليل.

توقفت شيلا بعد خطوات لتلقي نظرة إلى الخلف لكن العم جايسون شدها مرة أخرى لبحثها على متابعة الطريق إلى أن أصبحا بعيدين عن الركام الذي كان يتطاير ويتساقط، والسحب السوداء الملبدة بشرارات النار.

توقفا في مكان ليس ببعيد عن طريق الصخور، ثم استدارا.. كان القصر يحترق، من الباب المفتوح الذي خرجا منه حتى الأبراج الحجرية وصولاً إلى السقف الرئيسي.. كل نافذة كانت مضاءة مشتعلة، وفكرت شيلا بجنون: آخر مرة رأيت فيها الأنوار في كل النوافذ كنت في حوالي السادسة عشر،

وكان يوم الميلاد. وصاحت:

ـ لماذا لا يضع المطر حداً للنار؟

لم يتفوه عمها بشيء، ولمست وجهها، لم يكن هناك مطر.. فهذه دموعها تنهمر على خديها، من أثر الدخان ومن مراقبة القصر وهو يتلاشى.. لم تعرف مثل هذا العذاب من قبل ولا مثل هذه التعاسة. وقفا ملتصقين ببعضهما ينظران وكأنهما أمام مشهد في فيلم سينمائي، أو في عرض للألعاب النارية، دون أن يتفوه أي منهما بكلمة.

لم تستطع شيلا أن تخمن كم مضى من الوقت عليهما هناك قبل أن يسمعا سيارات الإطفاء وهي تطلق صفاراتها. ربما مرت ربع ساعة، لكن، لو قيل لها قد مرت ساعات لصدقت. بعد وصول أول سيارة إطفاء، وسيارة الشرطة، ازدحم الناس مسرعين حول المكان وهم يصرخون.

ورغم أن المطر كان ينهمر بشدة فقد كانت بالكاد تشعر به.. كان المشهد يبدو وكأنه الجحيم: المطر وألسنة النار والدخان المتصاعد وأشباح أشخاص بتراكضون.. بعض الوجوه كانت صديقة، توجهت إليها وقالت كم إن الأمر رهيب.. وضع أحدهم معطفاً حول كتفيها، وآخر وضع حذاءً في قدميها وارتفعت السلالم وتراقصت الحبال، لكن النار كانت لا تزال تهدر وتمتد لتلتهم كل شيء..

ظنت أن هذا أسوأ ما في الأمر.. حتى علا الصياح والضجيج وأسرع رجل ليقول لها:

ـ إنه عمك.. لقد انهار.

كانت تحس بالدوار، لكن هذا الخبر أيقظها وركضت مسرعة نحو المرجة الواسعة الخضراء التي ازدحمت بمعدات إطفاء الحريق وعدد من المركبات المتوقفة فيها، حيث كان جايسون سولبثان ممدداً.

حين وصلت إليه أرجعها أحدهم إلى الخلف بلطف وكان هو ممدداً وعلى وجهه قناع الأوكسجين وفي وهج النيران المشتعلة والأنوار الباهرة الزرقاء المنبعثة من سيارات الشرطة بدا أن هناك من يخوض معركة لأجله مع الموت. لقد تابعوا القتال.. لكنها معركة لا يمكن لبني البشر أن يكسبوها.. فقد تعرض لصدمة سدت شريانه الناجي منذ بضعة أشهر.. أما

هذه المرة فقد كانت الصدمة قاتلة . . وقبل أن يقع شهق بقوة ثم فارق الحياة .

أفاقت شيلا لتجد نفسها في غرفة غريبة عنها . . لا بد أنه قد جيء بها إليها ليلة أمس لكن كل ما فيها كان يبدو غريباً عنها هذا الصباح . . كان رأسها يؤلمها ، واسترجعت ما حدث ليلة البارحة . وتقطعت أنفاسها وهي تحاول الجلوس . . حاولت أول الأمر أن تتصل بميتش قبل أن تأخذ حبوباً منومة ، لكنها لم تجده ، لكن الفتاة المدعوة سالي ورايت ، التقطت السماعة منها وطلبت من الشخص الذي كان على الطرف الآخر من الخط أن يتصل بأسرع ما يمكن .

إذن . . هذا هو منزل سالي ورايت المنزل المطل على الجانب الآخر من الخليج الصغير . لقد عرفت أن العم جايسون مات عندما وقف الرجال الذين كانوا يحتشون فوقه ونظروا إليها . بعدها لم يعد مهماً لها أين ستذهب . . يجب أن تخبر ميتشل . وكانت سالي قريبة ودون أن تشعر تركتها تأخذها بسيارتها ، وهكذا وصلت إلى هنا .

عندما حاولت الاتصال بميتش كان الدكتور وايمان الطبيب الذي يعالج العائلة منذ سنوات واقفاً إلى جوارها . . فأعطاها قرصين أبيضين صغيرين فابتلعتهما بسرعة . لأن الشيء الوحيد الذي كانت تصبو إليه وقتها هو أن تغيب عن الوعي .

لم تكن راغبة في الاستيقاظ . لكنها الآن بدأت تصحو . وكانت سالي ورايت تتجه نحوها . أرادت أن تغمض عينيها من جديد وتعود للنوم . . فهي لم تكن قادرة على تحمل نظرات الإشفاق التي يجود بها الآخرون وما كان عليها أن تدعهم يأتون بها إلى هنا . . كان يجب أن تبقى منعزلة عن الناس ، مختبئة في مكان ما حتى يخف الألم . كان يجب أن لا تظهر ألمها إلا بعد أن تصبح وحدها . . ما كان يجب أن تنهار أمام غرباء

بدت سالي ورايت كأنهما لم تنم . . فقد كان هناك ظلال تحت عينيها المحمرتين ، كما بدا شعرها الناعم الأشقر المنسدل على وجهها وكأنها لم تغسله من أثر مطر البارحة . كانت جميلة . ولطالما قال العم جايسون انها تذكره بدمية صينية . . والمرء لا يشاهد الكثير من الدمى الصينية هذه الأيام .

لكن شيلا كانت تعرف ما يعنيه

حين عادت سالي لتقف إلى جانب السرير كانت عيناها مبللتين بالدموع ، التي ترقرقت على خدها الناعم المستدير .

لكن عينا شيلا كانتا جافتين . وفكرت : أنا لا أحس بشيء . . وعليّ أن لا أحس بشيء ، وإلا سأبدأ بالصراخ ولن أتوقف . . !

همست سالي ، وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد .

ـ هل أنت بخير؟

هزت شيلا رأسها وفكرت : يا له من سؤال غبي!

ـ سأحضر لك القليل من القهوة .

ـ شكراً لك .

ـ اتصل شقيقك لكننا رأينا أن من الأفضل لك أن تبقي نائمة وسيصل إلى هنا في وقت قريب .

ـ شكراً لك .

إنه الصباح الآن ، بدأ نور النهار يتسلل من خلال النوافذ . . كانت الغرفة جميلة للغاية حديثة الطراز وكان كل شيء في الديكور متناسقاً مع محتويات الغرفة الأخرى . . ليس بإمكان المرء أن يرى غرفاً كهذه إلا في المجلات .

تذكرت غرفة نومها ، وقد بدت لها الذكرى بعيدة جداً ، كأنها الحلم .

كل شيء يبدو لها كالحلم . . حتى هذه الغرفة ، والسرير القطري ، بمفارشه الحريرية الناعمة ، وكذلك بدت لها الفتاة التي تتحرك بصمت فوق السجاد السميك

سمعت طرقاً خفيفاً على الباب ، وأدخلت بعده صينية حملتها سالي إلى الطاولة الصغيرة قرب السرير . كيف قالت إنهما جاهزان للقهوة؟ تخاطر أفكار؟ أم أن سالي ضغطت زراً في مكان ما؟

قالت رداً على سؤال سالي : حليب؟ سكر؟

ـ أجل . . أرجوك!

بدا كأنهما ثابتتين ، رغم برودتهما . ارتشفت القهوة ، ووقفت سالي تنظر إليها ، وهي تعض شفتيها ، قلقة مترددة ، ثم قالت .

ـ طلب الدكتور وايمان أن أتصل به حين تستيقظين من النوم .

ـ كم الساعة الآن؟

ـ جاوزت السابعة والنصف بقليل.

ـ لا تزعجيه الآن.. ربما كان لديه عملية جراحية، فتأخر في النوم.

أصغت شيلا إلى صوتها، خفيفاً، بارداً، وكأن شخصاً آخراً يتكلم.. لا تريد من الطبيب أن يهتم بها وكأنها مقعدة.

قالت:

ـ أود النهوض من الفراش.. لكنني أعتقد أنني لا أملك ملابساً.

ـ لقد أحضرت لك هذه الثياب.

كان على الصوفا، حيث أشارت سالي، تنورة رمادية وكنزة كشمير زرقاء اللون، وكومة صغيرة من الملابس الداخلية.. وأردفت سالي تعتذر:

ـ أظنك أطول قامة مني.. لكنني أظنها ستفي بالغرض في الوقت الحاضر.

ـ شكراً لك.

فتحت سالي باباً تدلها على الحمام.. فعضت شيلا على شفتيها وقالت:

ـ لا بأس لو تركتني وحدي.

ردت سالي بسرعة:

ـ أجل.. بالطبع.. سأكون في الغرفة الملاصقة.. إذا احتجت لشيء أو حين تكونين جاهزة، دقي على الجدار.

ـ شكراً لك.

أصبحت تتفوه بهاتين الكلمتين بشكل آلي.. مع أنها لم تكن تعبر عن امتنانها بهذا الشكل لأحد من قبل.. انتظرت حتى تغادر سالي الغرفة، فوضعت فنجان القهوة على الصينية، وأزاحت عن جسدها الأغطية المخملية.

حين وقفت، ترنحت بعض الشيء ثم تماسكت، وسارت ببطء نحو باب الحمام الذي كان مفتوحاً.. كانت ترتدي ثوب نوم ليس لها.. فقميصها كان من القطن، أما هذا فمن الحرير.. لا بد أن أحداً غيّر لها ثيابها ونظفها، أو ربما فعلت هذا بنفسها.. لم تعد تتذكر بوضوح.. ولا تريد أن

تتذكر.

كان الحمام جزءاً من غرفة النوم، فالنقوش وألوان الزهور التي تزين جدرانه هي ذات النقوش التي تزين جدران الغرفة.. لا شيء خاص فيه، مناشف نظيفة، صابون جديد، مناشف ورقية جديدة.. نظرت إلى صورتها في المرآة، وجه ورقي شاحب.

لم تجرؤ لأول وهلة على دخول المغطس خشية أن تنزلق فتغرق، مع أن هذا الأمر لا يبدو سيئاً بالنسبة لها.. أوصلت الماء إلى حرارة دافئة.. أغمضت عينيها وتركت الماء ينهمر فوق وجهها وفتحتهما كرهاً حين خطت إلى الخارج.

جففت جسمها، ثم عادت إلى غرفة النوم.. كانت الملابس مناسبة لها تماماً.. كانت سالي أكثر منها امتلاءً، لكن ليس أقصر بكثير.. تقدمت شيلا إلى طاولة الزينة، والتقطت فرشاة وبدأت تمشط شعرها الميلل ببطء شديد.

جلست على الكرسي وقد أدارت ظهرها إلى المرآة تتساءل كم سيطول الوقت قبل وصول ميتش.. هل أخبروه بكل شيء؟ لا بد أنهم فعلوا.. وستكون رحلته رهيبة.. وتمنت أن يقود سيارته بحذر..

ربما سيبدو مندهشاً لوجود شقيقته في هذا المنزل.. فقد دهشت هي بنفسها أكثر مما سيندهش ميتش، لأنه لا يعلم حقاً.. سمعت طرقاً على الباب كان كفيلاً بانتزاعها من أفكارها، وقبل أن ترد، دخلت سالي.. كانت قد لفت شعرها بالمنشفة، ووضعت القليل من الماكياج على وجهها.

ـ لم يتوقف الهاتف عن الرنين.. وقد طلبت من الخدم أن يدونوا أرقام هواتف المتصلين، ويخبرونهم بأنك ما زلت ترتاحين. يبدو أن الجميع قلق عليك.

ـ هذا لطف كبير منكم.

ـ أعتقد أنك لا تريدين التحدث مع أحد؟

ـ فعلاً.. لا أريد.. مع ميتش فقط.

ـ أتريدين الانتظار هنا حتى يحضر، أم ننزل إلى الطابق الأسفل؟

ـ لا يهم.

ـ أننزل إذن؟

ـ طبعاً.

لم تكن ترى الأشياء بوضوح. لم يسبق لها أن دخلت هذا المنزل من قبل. كان صغيراً، بالنسبة للقصر، لكن بدا أن فيه نوافذ أكثر. وأقل عتمة.

كانت الغرفة التي قادتها سالي إليها باردة أنيقة. غطت أرضيتها سجادة صينية. وتجمدت شيلا في وسط الغرفة. لقد أصبح من الصعب عليها أن تختار الكرسي الذي ستجلس فيه. وسألتها سالي باهتمام:

ـ هل أنت بخير؟ أهناك من تريدينني أن أتصل به لك؟ أو إحضاره؟

لا بد وأن يكون هناك من ترغب في أن تكون معه الآن، أكثر من هذه الغريبة، نسبياً. لكنها لا تستطيع تذكر أحد. وقالت:

ـ ليس الآن. شكراً لك. سأنتظر إلى أن يصل أخي.

عادت سالي إلى البكاء مجدداً. واغرورقت عيناها بدموع كثيفة بدأت تتدفق من بين رموشها، لكن شيلا كانت تحس وكأن رموشها جامدة متيبسة. ربما ستنهار عندما يصل مينشل، لكنها ترجو أن لا يحصل هذا. فالانهيار لن يعيد الميت حياً.

توقف تفكيرها عند كلمة الميت، لأنها لم تكن قادرة بعد أن تصدق أن العم جايسون قد رحل. ولن تصدق. سارت حذرة ببطء إلى النافذة الكبيرة، ونظرت عبر الخليج. البحر هادىء، والسماء صافية. كان هناك قارب، وتساءلت فيما إذا كان هناك عندما حدثت العاصفة. إذا كان هناك، فلا بد أن من كانوا على ظهره لديهم قصة يروونها.

أجبرت نفسها على النظر إلى الجانب الآخر من الخليج. إلى أبعد نقطة في أفق السماء حيث القصر. وشهقت بقوة. كانت تظن أنها لن ترى شيئاً باقياً. لكن للوهلة الأولى، بدت الصورة من بعيد وكأنها لم تتغير. ثم تذكرت أن الحجر لا يحترق. ولا بد أن يكون مجرد غلاف. لكن من حيث هي تنظر، يمكنها أن تتخيل أن كل شيء على ما يرام وأن الغرف تبدو كغرف هذا المنزل من خلف الأبواب الموصدة. حتى أنها تخيلت العم جايسون، وكأنه الآن جالس قرب النافذة في غرفة الجلوس الصغيرة، يتناول إفطاره المكون من القهوة والخبز المحمص، وربما البيض واللحم.

لمست سالي ذراعها بوجل وسألت:

ـ هل تريدين... أيمكن أن أحضر لك بعض ما تأكلينه؟

ـ ماذا؟ أوه... لا... شكراً لك.

أبقت عينيها شاخصتين باتجاه القصر، وقالت سالي:

ـ بالكاد يمكن أن تلاحظي شيئاً... أليس كذلك؟

أدركت على الفور كم أنها كانت فظة. وتذكرت أن جايسون سوليفان مات... فتمتمت:

ـ أنا... أعني...

ردت شيلا:

ـ ليس من هنا.

ولكي تجعل سالي ترتاح، ابتعدت شيلا عن النافذة وجلست على كرسي قرب المدفأة... كانت مرهقة، مع أنها نامت ساعات. يداها كانتا تقبلتين في حجرها، ورموشها منخفضة... وقالت سالي:

ـ ترك لك الطبيب بعض الأقراص إذا إحتجتها فهي مجرد مهدئات.

لكن شيلا كانت هادئة إلى حد كاف... فهي لا تزال مخدرة. وقالت:

ـ ربما فيما بعد، سأجلس هنا فقط. وأنتظر.

بدا وجه سالي جميلاً وهي ترد بقلق:

ـ أنت واثقة أنك لا تريدين شيئاً؟

ردت بثبات:

ـ لا شيء أبداً.

تنهدت سالي:

ـ أنت شجاعة جداً.

فكرت شيلا كم هي غبية هذه الفتاة. فكل هذا لا علاقة له بالشجاعة... آلية دفاع في جسدها تسيطر على تفكيرها وهي ممتنة لها.

كانت تشعر ببرد شديد... رغم أن الجو كان دافئاً اليوم وكذلك الغرفة... تنفست بصعوبة وبأنفاس متقطعة. وكان من الصعب عليها أن تتحرك دون عناء كبير. لم تر بداً من الجلوس هنا، حتى لو اضطرت للانتظار ساعات طويلة حتى يصل مينشل، فهو الوحيد الذي تبقى لها من العائلة الآن، ورغم أنه قد غادر القصر إلا أنهما كانا قريبين إلى بعضهما جداً... وفي كل

لقاء بينهما كان يطلب منها المجيء ومشاركته شقته في لندن . . لقد زارته مرة هناك في إحدى العطل واستمتعت بوقتها كثيراً . كما أن أصدقاؤه تقبلوها، وأحبوها . . لكن شيلا لم ترغب يوماً في البقاء . . صحيح أنها استمتعت بعطلتها هناك، لكنها تسعد أكثر عندما تعود إلى بيتها .

والآن، لم يعد هناك أي بيت . . لكنها الآن عاجزة عن التفكير بالمستقبل . وجلست جامدة كتمثال من الصوان، مذهولة مصدومة مشلولة التفكير، إلى أن سمعت صوت سيارة .

قد لا يكون القادم ميتشل، وقد يكون هو . راقبت الباب وحين فتحته سالي نظرت شيلا إلى الرجل الذي برافقتها . . وكانت مخدرة الإحساس إلى حد تعجز معه عن الشعور بخيبة الأمل، لأن الرجل لم يكن ميتش . لكن المنزل منزله، وعليها أن تتوقع وجوده هنا . .

ميل ورايت، شقيق سالي، بدا وكأنه يملأ مدخل الباب . . فهو ضخم، عريض الكتفين، شعره أسود فاحم، أنف معكوف، عينان سوداوان . . أي قرابة دم بينه وبين الدمية الصينية الشقراء بدت مستحيلة . . لكن هذا هو الواقع .

كانت شيلا قد مالت إلى الأمام قليلاً مترقبة، لكنها عادت مسترخية إلى الوراء . . نظر ميل ورايت إليها من خلال عينين لامعتين يعلوهما حاجبان كثيفان، وبدا كأنه يفحصها كما يفعل الطبيب . . تساءلت ماذا سيقول . . أيقول كم أن ما حدث رهيب، أم سيسألها مرة أخرى ما إذا كانت بخير؟

لكنه قال :

ـ لا شيء أستطيع قوله . . سوى أرجوك أن تبقي هنا . . تصرفي بهذا المنزل كما شئت .

شفتاها كانتا جافتين كعينيها :

ـ شكراً لك . . هذا كرم رائع منك .

بدا لها ثرياً . . ثيابه دائماً رسمية . . كان يرتدي بذلة سوداء مفصلة وقميصاً أبيض . . بمجرد النظر إليه يعرف المرء أنه لا يرتدي سوى الأفضل . . كان العم جايسون يسميه «القرصان» وتصورته شيلا بسهولة وهو في ثياب مبهرجة لقرصان قديم يدعى «كابتن ورايت» . . أحست برعشة

كراهية له، وأدارت رأسها، ثم سمعته يخرج من الغرفة، وتقدمت سالي إليها فسألت مرة أخرى :

ـ أتريدين شيئاً؟

ـ لا . . شكراً لك .

لا شيء يمكنك أن تفعليه لي .

جاءت سيارات أخرى . . وسمعتها . . أخيراً، واحدة منها كانت سيارة ميتشل . . وصل راكضاً إلى الغرفة، مقفلاً الباب وراءه كي لا تدخل سالي التي كانت تلحق به، وقفزت شيلا وهرعت متعثرة لتلقي نفسها بين ذراعيه .

كانا متشابهين تماماً، أخ وأخته . . شعر ميتشل أقصر من شعرها ومجعد، لكن لهما تقاسيم الوجه والعيون الزرقاء نفسها . . كان ميتشل أطول منها بقليل، وهو شاب وسيم جذاب، مع أن وجهه كان منقضاً من أثر الحزن . وغرقا في القلق معاً، وكأنما يستمدان الدعم من بعضهما وهمس لها :

ـ إيلا . . بابي . . لا تبكي . . حبي . . لا تبكي . .

إيلا كان اسمها وهي طفلة . . ولم يستخدمه أحد منذ سنوات، ولم تكن تبكي . . لم تستطع أن تبكي . . لطالما كان ميتشل منحوراً أكثر منها وأقل تحفظاً بكثير . . لم تكن ترغب في أن تتحدث عن العم جايسون أبداً . . لكنه قال لها :

ـ يا للرجل المسكين . . على الأقل كانت ميتته سريعة .

قالت من خلال أسنانها المطبقة :

ـ ما كان يجب أن يحدث هذا .

تنهد وضمها إليه أكثر :

ـ لا . . لكن، أشكر الله أنك سالمة .

ـ ما كنت لأكون سالمة لو لم يجيء ليخرجني .

في يوم ما قد تلوم نفسها لأنها لم تشعر بالحريق في وقت مبكر . . فالركض بسرعة إلى غرفتها والهروب بذعر إلى الخارج، كل هذا قد أجهد قلبه المريض . . وأكملت :

ـ أدين له بحياتي . . لم أكن أعرف أن القصر يحترق .

ـ كلانا مدين له .. وأنا آسف لأنني لم أكن أنظر إلى الأمور بطريقته .

ـ مع ذلك كان يحبك .. بحساسه .

يجب أن يذكرا هذا دائماً .. فهذا ما تبقى لهما .. ونظرت شيلا إلى النافذة . وتابع نظراتها وأفكارها وسأل .

ـ ما مدى الاضطرار هنا ..

ـ لا أعرف .. أظنه احترق بالكامل .. لا أريد أن أرى ، ليس بعد .

وأغمضت عينيها وكأن شخصاً قادها إلى النافذة .. فقال ميتش :

ـ بكل تأكيد .. لا تنظري .. لست بحاجة لتنظري .. سأذهب لأرى كل شيء .

هناك الكثير الكثير مما يجب القيام به .. لكن ميتش أبعدها عن معظمه .. وأقام كلاهما في منزل ميل ورايت .. كان فيه عدة غرف للضيوف .. وحضرت سالي غرفة منها لميتش .

لم ترد على أي مخابرة هاتفية .. بوجود ميتش ، إذا كانت المخابرة لهما ، يتولاها بنفسه ، وإلا كانت سالي تستلم الرسالة .. حين جاء الأصدقاء والجيران ، جلست شيلا هادئة رابطة الجأش ، تتقبل العزاء ، وكأن الأمر لا يعنيها .

خرجت للتسوق مع سالي ، واشترت ما يلزمها فقط من ملابس .. شيء رسمي بسيط للجنازة .. لكن ، حتى الجنازة لم تبدُ لها حقيقية .. ووقفت مع ميتش يداً بيد ، ولم تستطع معرفة من غيرهما كان هناك ، حتى أنها بدت غير قادرة على تذكر مراسم الجنازة بشكل واضح .

فيما بعد قرأ المحامي الوصية ، في مكتبه المكسو بالخشب والمطل على الساحة .. وراقبت شيلا طيور البحر وهي تطير وتحط أحياناً على قمم السطوح ، وتساءلت لماذا يزعجون أنفسهم بمثل هذه الإجراءات القانونية . كانت الورثة الوحيدة .. كل شيء يمتلكه عمها أصبح لها .. لكن أموال الائتمان توقفت مع موته .. والقصر احترق ، فماذا يهم إذن اسم من على هذه الورقة ؟

لكنها وقعت الأوراق ، وصافحت عدة أشخاص فيما بعد ، حين أخذوا يتحدثون عن أي نوع من الأشخاص كان العم جايسون ، وكم أن فقدانه

بشكل خسارة للمجتمع ، قالت دون وعي :

ـ أجل .. حقاً .

ثم أخرجها ميتش إلى موقف السيارات وفتح لها باب سيارته وحين أصبحا داخلها قال لها :

ـ حسناً .. لقد انتهى كل شيء الآن .. يا حبي .

كان يقصد الأيام الأولى .. التحقيق والجنازة ، وليس الحزن . مع أنه كان يأمل أن يصبح الأمر أكثر تحملاً بالنسبة لها .. فهذا ما كان له . مع ذلك كان لا يزال حزيناً على العم جايسون ، لكنه مضطر للعودة إلى لندن هذه الليلة ، فالعمل لا ينتظر أكثر من هذا .. وسألها :

ـ ماذا ستفعلين بالقصر ؟

ـ لا أعرف .

لم تكن قد اقتربت منه بعد على عكس ميتش .. وسمعت عشرات المرات أن النار أتت على الجزء الرئيسي من البناء ، وأن لا أحد يستطيع العيش فيه ثانية .. ربما يمكن بيعه بثمن غير مرتفع .

وضع ميتش يده فوق يدها ، وقال :

ـ أنا مسرور أن ما تبقى قد أصبح لك .. بالطبع هناك مصاريف الجنازة ، لكن يجب أن تحصلي على شيء ينبقى لك .

هزت كتفيها .. فتنهد . هدوؤها المستمر يقلقه لكان أحس براحة أكثر لو أنها انهارت .. ليدا هذا طبيعياً أكثر .. لكنها طفلة صلبة ، ولطالما كانت ، ربما كانت تبكي حين تكون وحدها .. لكن الوقت حان لتقرر مصير مستقبلها .. وقال :

ـ سأتدبر أمر تقدير قيمة المكان .. ما تم إنقاذه أودعته في الأبنية الخارجية .

ـ هل ستفعل هذا ؟

ـ بالطبع .. أمر سهل .. لكن يجب أن أعود اليوم .. ألن تأتي معي ؟

إنه يعرض عليها منزلاً يأويها ، وبكل تأكيد ستجد لنفسها وظيفة تناسبها في لندن . لكن توقع الضجيج وصخب المدينة ، وأصدقاء ميتش وزملاءه ، بنكاتهم وكلامهم اللاذع ، وعقولهم الحادة جعلها تتكمش .. ربما فيما بعد

حين تستعيد قوتها مرة أخرى.

ـ لا أريد المغادرة الآن.

لقد تلقت عروضاً للإقامة في عدة منازل، وهناك عروض للمساعدة من كل الأصدقاء في المنطقة.. وكان ميتش يعرف هذا.. ولهذا لم يجادلها:

ـ كنت أتوقع منك هذا.. سألتني سالي بالأمس عن خططك للمستقبل.. وأظنها ترغب في أن تناقشها معك.

ـ سالي ورايت؟ ولماذا تهتم بخططي؟ لماذا خاطبتك عني؟ لماذا لم تحدثني أنا؟

قال ميتش بلطف:

ـ لأنك لا تسمحين لأحد بمساعدتك.. إنك هكذا!

يجب أن تخرج نفسها من هذا الحذر العميق، وأن تستعيد الإحساس بالحياة من جديد.. وقالت:

ـ حسناً جداً.. فلأذهب لأرى سالي.

كانت سالي في الحظيرة، لكنها الآن قد عادت إلى المنزل، وكانت تقف عند بوابة البيت الأبيض الكبير.. تنظر إلى الطريق الداخلية التي تتفرع من الطريق العام.. ودخل الجميع إلى غرفة الاستقبال الأنيقة.. كانت سالي ترتدي ثوباً رمادياً بسيطاً، وبدت كفتاة مدرسة، تجلس على حافة الكرسي وتسأل ميتش بلهفة:

ـ حسناً؟

ابتسم ميتش:

ـ إذا كنت تسألين عن الوصية فقد ترك كل شيء لشيلا.. أما إذا كنت تريدين معرفة خططها.. فهي لا تريد الذهاب معي إلى لندن.

استدار رأس سالي إلى شيلا، وبدا عليها الانتصار:

ـ هذا ما ظننته.. أعني، جدورك هي في هذه المنطقة.. أليس كذلك؟ لكنك لا تستطيعين العودة إلى القصر.. وأعرف أن أصدقاءك يحبون أن تقيمي معهم.. لكن لماذا لا تقيمين هنا معي؟

رسمت شيلا على شفتيها ابتسامة حائرة.. دعوة دائمة شيء جميل.. خاصة من فتاة لم تعرفها حتى أسبوع مضى إلا من خلال ما سمعته عنها من الآخرين.. وتابعت سالي:

ـ من المفترض أنني أدير هذا المنزل.. ويمكنك مساعدتي.

ـ تريدين مدبرة منزل؟

هزت سالي رأسها:

ـ لا.. لدينا مدبرة منزل.. أريد رفيقة.

انحنت إلى الأمام ويداها مضمومتان كأنها تتوسل:

ـ ستكون وظيفة حقيقية، وبمرتب، وسيعطيك هذا فرصة للتنفس.. أليس كذلك؟

كان عرضاً مغرياً.. فالبقاء هنا لفترة سيعطيها الفرصة لتستجمع شتات نفسها.. لكن هناك عائق كبير.. وسألت:

ـ ولماذا سيقبل شقيقك عن طيب خاطر معي؟ لقد كان لطيفاً جداً معي.. لكن بعدما سيفكر وأنت تدفعين لي المال لأبقى؟

كانت ابتسامة سالي مشرقة

ـ أوه.. لقد سألته بالفعل.. ويعتقد أنها فكرة رائعة.. يقول إنك ستكونين ذات تأثير جيد علي.. تعرفين.. هادئة ومتعقلة ومحافظة

فكرت شيلا: أنت لا تعرفيني جيداً.. ولا يعرفني أخوك.. نظر إليها أخوها، وحنى لها رأسه مشجعاً.. فسألت

ـ أواثقة من هذا؟

رنت سالي بوفاء شديد:

ـ بصدق.. أعدك، ميل موافق على الراتب وكل شيء

ـ أريد التحدث إليه أولاً

تريد أن تسمع منه التأكيد قبل أن تقبل الإقامة في منزله، قالت سالي بمرح وهي تقفز عن الكرسي:

ـ على الفور

انحنت بها شيلا عبر الردهة إلى باب غرفته.. كانت الغرفة عبارة عن مكتبة صغيرة، مكتب صغير لإنجاز الأعمال في المنزل، وكان ميل ورايت يجلس وراء طاولة كبيرة، وقد انسدلت أمامه أوراق مطبوعة.. قالت سالي وهما تدخلان الغرفة

ـ ظننت من شيلا أن تبقى، وتريد معرفة رأيك بالأمر

ابتسم لهما معاً، وبدت أسنانه شديدة البياض قياساً لبشرته السمراء، وقال لسالي:

ـ حسناً جداً.. هيا، أخرجي من هنا.

وهذا ما فعلته دون كلمة احتجاج.

كان يعاملها كطفلة، فكرت شيلا.. لماذا تتحمل هذا؟.. وجلست حين استدار من على طاولته وجذب لها كرسياً، ثم قالت:

ـ لقد عرضت علي عملاً هنا.

بدا أنه يعرف كل شيء:

ـ أجل.

ـ هل هناك بالفعل عمل، أم أنها تعرضه من باب اللطف؟

عاد إلى كرسيه، ليجلس مواجهاً لها، ولم تشاهد من قبل مثل عينيه السوداوين، كحفرة عميقة. قال:

ـ إنه اقتراح سالي.. لكنني موافق أنها بحاجة إلى رفيقة.

التوت شفتاها بشبح ابتسامة:

ـ بكل تأكيد لا..

الجميع يعرف أن سالي ورايت مشهورة محبوبة بقدر جمالها وكان العم جايسون يقول عنها ممازحاً «ماذا ننوي دميتنا الصينية أن تفعل الآن» حين يرى اسمها أو صورتها على صفحات الجرائد التي تغطي أخبار المجتمع.

آخر حادثة كانت في اسبانيا حيث يملك ميل ورايت فيلا، فقد التقت سالي شاباً صياداً جذاباً.. ولا بد أن كل شيء كان مثالياً إلى أن انقضّ عليهما ميل، وأعاد سالي إلى هنا.. يومها ابتسمت هي والعم جايسون لهذا الخبر.

سمعت ميل ورايت يقول بخشونة:

ـ شقيقتي ليست واعية محترسة دائماً في اختيار الرفاق.

إنه يعني اختيارها للرجال! في الواحدة والعشرين قد تكون قد تخطت مرحلة المراهقة.. لكنها نسيت بكارثة عندما تزوجت وهي في الثامنة عشر رغماً عن أخيها.

تراهن شيلا أنه لن يدعها تنسى هذا.. وأحست ببعض الإشفاق عليها، وهي التي كانت كريمة جداً معها هذا الأسبوع، ولطيفة جداً.

سمعت ميل ورايت يقول:

ـ أريدها أن تبقى هادئة هنا لفترة.. وستكونين الرفيقة المثالية لها..

إذن.. لا مزيد من الأسفار لسالي..

ـ هذا إطراء كبير لي.

أيريد رفيقة لأخته أم سجّانة؟ أو ربما جاسوسة؟ شخص يراقب سالي.. هذا مؤكد، كي يستطيع أن يمنع علاقة لا يوافق عليها.

طفق يتحدث عن المرتب.. مرتب جيد.. ويرحب بها في منزله، ويعرض أية مساعدة تحتاجها في تسوية شؤونها وهو رجل لديه موارد، ويستطيع التعامل مع معظم المشاكل.

بدا لشيلا وكأنه يتدفق حيوية وسلطة، نظرت إليه بشكل مباشر وهو جالس هناك قبالتها، وفكرت: يا له من فم قاسي.. تتكلم عن مد يد العون والمساعدة، لكن ليس لديك شيء من الرحمة أو العطف.. لقد جعلت عمي جايسون يشيخ قبل أوانه.. أنت من سبب له أزمة القلب المبكرة.. ولو لم يضعف قلبه إثر تلك الأزمة لكان قد نجا من الأخيرة.

إذن.. لقد عادت أحاسيسها مجدداً لها.. وبدأت طبقات الجليد تذوب.. أول ما تدفق من هذه الأحاسيس لم يكن الحزن.. لكنه سيأتي قريباً.. وستبكي على الرجل الذي كان أباً لها، لكن ما تشعر به الآن، وفي كل عرق من جسدها.. هو الكراهية العمياء!

٭٭٭

www.liilas.com

{doode}

٢ ـ ضيفة العدو

وافقت شيلا أخيراً على العمل مرافقة لسالي ورايت، وقد اعتبرها الجميع آنذاك محظوظة.

لقد أصبحت مؤسسة الهندسة التي كانت ملكاً لعائلتها منذ العهد الفيكتوري، جزءاً من أمبراطورية ميل ورايت الواسعة ولكن أحداً لم يكن يعرف كم عانى العم جايسون بسبب هذا ولا كم كان امتعاض شيلا شديداً ضد هذا الرجل الذي سيدفع لها منذ الآن فصاعداً مرتبها الشهري والذي ستقيم في منزله.

حاول العم جايسون أن يبدو شجاعاً، عندما استولى القرصان على المؤسسة ولكنه كان يبدو متداعياً عندما يكون مع شيلا وفي اللحظات التي يكون فيها وحيداً. لقد تم الأمرُ بسرعة، بالسرعة ذاتها التي ارتفع فيها هذا البناء الأبيض الفخم بعد أن كان في السابق مجرد شاليه صغير يعرض للإيجار خلال موسم الاصطياف.

حين شاهدت شيلا أولى الجرّافات، تتحرك كالوحش على جانب التل في الجهة المقابلة للخليج شهقت قائلة: يا إلهي! أيبني لنفسه بيتاً هنا؟ وتنهد العم جايسون، وهو يقف إلى جانبها قائلاً: «أخشى أن هذا ما يبدو لي يا عزيزتي.. لقد جاء القرصان ليقيم هنا».

في الظاهر، كانت إجراءات نقل ملكية المؤسسة تبدو حضارية فقد صوّت حملة الأسهم بحماس لصالح هذا الإجراء.. ميل ورايت هو أحد ملوك السلطة، ولا يمكن أن يخطىء، وبالطبع فإن الجميع أراده مسؤولاً عن إدارة شؤونهم.. لكن تنحية العم جايسون بهذه الطريقة رغم أن الجميع كان

يدّعي دعمه، حطم روحه المعنوية.

وحدها شيلا كانت تعرف هذا.. كان يبدو مرهقاً وعجوزاً عندما يعود من بعض الاجتماعات أو المؤتمرات.. وأول نوبة قلبية أصابته قال الأطباء إنها حصلت نتيجة إرهاق في العمل. ولذلك فمن حسن حظه أنه تقاعد باكراً، قبل حصولها بشهر.. لكنه في الواقع كان محطم القلب.

في ليلة من الليالي.. رأته شيلا يبكي، وكانت قد خرجت إلى حديقة القصر لتبحث عنه، سارت بصمت حتى أطراف المرجة حيث كان واقفاً تحت إحدى الأشجار.. كان يقف جامداً، يداه مكتوفتان وقد انحنت قامته، وكأنها تنوء تحت تأثير ثقل هائل فوق كتفيه.. كان ثقل الملكية سيتم في كل الأحوال وقد شعرت أنه يقاسي كثيراً لأجل هذا. لكنها حين اقتربت منه ذعرت لرؤية الدموع تلمع على خديه.. فلم يسبق لها أن رأته يبكي.. كان رجلاً فخوراً بنفسه إلى حد الاعتداد.. وكان لهذا وقعٌ رهيب عليها، ولو استطاعت لابتعدت عنه زاحفة.. لكنه شاهدها وسألته:

ـ أيجب أن يتم؟

ـ لقد تم كل شيء.. منذ اللحظة التي قرر فيها ميل ورايت الاستيلاء على شركتنا الصغيرة، لم يعد هناك شيء يستطيع إيقافه.

استمعت إليه وهو يشرح لها كل الأسباب التي تستدعي أن تصبح المؤسسة مجرد كرسي صغير في ماكينة ميل ورايت الضخمة، وقالت يائسة:

ـ إذن، فليأخذها، فلن تكون صفقة رابحة.

فلم تعد هنالك عروض عمل كثيرة، وحسب التقارير فإن المؤسسة كانت تتراجع بقوة. لكن العم جايسون ابتسم بضعف وقال:

ـ ألا تظنين أنه سيحصل على صفقة رابحة؟ أوه.. بلى.. فلديه لمسةٌ ساحر.. إن أي شيء يشتريه يتحول بيديه إلى ذهب.. لذلك فإنها لا بد أن تكون صفقة رابحة.

كان لديه اجتماع في ذلك النهار مع ورايت، وحدهما فقط.. وعلمت شيلا أن عمها بطريقة ما قد طعن بكرامته.. وأدركت أن هذا هو اليوم الذي سيقول له فيه ميل ورايت، إن لا مكان لك في الشركة الجديدة. توقعت هذا، وأخذت تتحدث عن المستقبل، الأشياء التي سيملك العم جايسون وقتاً

ليقوم بها : جولات غولف ، رحلات ، لكنه قال :

ـ المؤسسة القديمة هي كل ما لدي لأعيش على ذكراه .

كان يمكن لشيلا أن تعترض عليه بعبارات ، لكنها كانت ستبدو مثل كذبة مكشوفة لا طائل من وراءها . وواصل كأنه يكلم نفسه :

ـ أعلم أنني خاسر وأعلم دوري بهذا الانهيار لكنني كنت أود لو أتنازل عن المؤسسة لسيد مهذب . وليس لفرصان !

أحست وكأنها كانت معه ، تصغي لكل ما سيقوله ميل ورايت . عرفت بالضبط ما الذي ستكون عليه المقابلة ، ونظرت عبر الخليج إلى حيث يرتفع البيت الأبيض الجديد ، وإلى حيث تتحول الأرض إلى حدائق غناء ، وتمنت من كل قلبها أن ينقلب حظ ميل ورايت رأساً على عقب . أرادته أن يتألم بشدة ، لأنه بسبب الألم لألطف رجل عرفته .

لم تغفر له مطلقاً الطريقة التي عامل بها عمها جايسون وحاولت أن تتجنب مقابلته . لقد جاء إلى القصر عدة مرات قبل أن يضع يده على المؤسسة ، لكن شيلا كانت تتحاشى رؤيته قدر استطاعتها . كانت اللقاءات دائماً تتناول شؤون العمل إلا أنها لم تحبه يوماً . وفيما بعد كانت تلمحه أحياناً في حديقة منزله الجديد ، فهو لم يكن ينزل إلى الشاطىء كثيراً . كان له مركب ، تعتقد أنه كان يمضي بعض الأوقات عليه عندما يكون راسياً في المياه العميقة .

لم تكن سالي قد أمضت وقتاً طويلاً هنا بعد . لكنها ذهبت إلى القصر بعد بناء المنزل الأبيض ، وانتقال ملكية المؤسسة . وقالت لشيلا :

ـ أنا جارتك الجديدة .

ذهلت شيلا لمحاولتها أن تبدو شبيهة بمارلين مونرو . ولم تستطع الإحساس بأي مودة تجاه شقيقة ميل ورايت . لكنها كانت مؤدبة معها . قدمت لها الشراب ، أصغت لثرثرتها ، ولبت دعوتها لزيارة البيت الأبيض . لكنها لم تعد للاتصال بها مرة أخرى .

لا بد أنها أحست بعدم اكتراثها بها ، على أي حال . لقد سافرت بعد أيام . فهذا ليس المنزل الوحيد الذي تملكه عائلة ورايت . فهناك منزل في لندن ، ولهم منازل عديدة في بلدان أخرى . كانت سالي تحيا حياة صاخبة

متحررة . ومنذ ذلك الوقت ، تابعت شيلا وعمها جايسون تفاصيل الحياة الاجتماعية للفتاة عبر الصحف ومن خلال إشاعات الجيران .

لم تتقبل شيلا أن تكون سالي صديقة لها . لكن سالي كانت أول من هرع إليها ليلة العاصفة ، لرؤية ما إذا كان باستطاعتها تقديم المساعدة .

أخذت شيلا تدرك الآن أنها بدأت تتعلق بسالي . كان بإمكان سالي أن تأتي بها إلى هنا وترعاها . فهناك العديد من الخدم يسهرون على راحة الضيوف في المنزل . لكنها تحملت عناء السهر بنفسها قرب شيلا . وبكت لأجلها كثيراً حتى احمرت عيناها وعرفت كم هو ضروري وجود ميتشل بقربها . فدبرت أمر بقاءه في المنزل . وها هي الآن تدعو شيلا للبقاء معها كرفيقة لها . من خلال هذا عرفت أنها لا تختلف عن أخيها بالمظهر فقط . لكنها بالفعل شقوقة . وهي لا يمكن أن تتعمد إيذاء أحد ما . وإذا كانت يوماً تحتاج لشخص يقف معها بوجه أخيها ، فإن هذا الشخص هو شيلا .

استدار ميل ورايت حول الطاولة الآن ، لقد انتهت المقابلة ومد يده لمصافحتها مؤكداً الاتفاق الذي تم بينهما وبصعوبة بالغة تقبلت ملامسة يده . كانت أصابعه تحطم أصابعها . ورغم أن مصافحته كانت مختصرة إلا أنها لم تستطع مع ذلك أن تحافظ على ثباتها . وقال :

ـ أهلاً بك في العائلة . أنا واثق أن سالي ستجد فيك صديقة رائعة .

ـ أرجو هذا .

قالت هذا ، ثم فكرت كم هو غريب أن لا يشعر بما تحس به نحوه . من المؤكد أنه يستطيع الحكم على الآخرين طالما أنه استطاع تحقيق كل هذا النجاح في أعماله . ولكنه بكل تأكيد لم يتقدم لها عملاً يمكن لها أن تؤثر من خلاله على سير الأمور . لو أنها حاولت الحصول على عمل إداري ، لكان قد تأكد من مطابقة كفاءتها مع مصلحته قبل أن يوافق بسرعة هكذا .

لكن كل ما تطلب الأمر محادثة لدقيقتين فقط . كانت تبدو كسيدة حقيقية . وأحبتها سالي ورغبت في رفقتها . ولم يدر بخلد ميل ورايت أنها يمكن أن تضره بشيء . ولم يفكر بسبب يجعلها تضمر له الحقد والضغينة .

ما من أحد سوى العم جايسون كان موقناً أنه الذي سلبهم كل شيء . . كانت قد قابلت ميل ورايت في حفلتين خلال السنة المنصرمة . . لم يكن

يحضر حفلات استقبال كثيراً، على الأقل محلياً. وشيلا لم تكن تحضرها كذلك.. وفي كلا المرتين لم يتبادلا سوى بضع كلمات.. وقد كانت أجمل الفتيات الحاضرات يرمين أنفسهن عليه.. إنه «الملك» المحلي.. ولم تدر شيلا ما إذا كان يتذكر من هي.

لا.. ليس غريباً أنه لا يعرف ما تكنّه له، في وقت لا أحد غيرها يكرهه ربما، ما عدا ميتشل. لكنه في مأمن، فلن تستطيع أن تؤذيه.. مع أنها لو سنحت لها فرصة، فستجد من الصعب أن تتركها تفلت منها.

كانت سالي وحدها حين عادت شيلا إلى غرفة الجلوس وقالت لها على الفور:

ـ لقد اتفقنا.. سأبقى.

بصرخة ابتهاج، طوقت سالي عنق شيلا بذراعيها.

ـ كم أنا مسرورة.. كم أنا سعيدة! أتعلمين، أنا مبتهجة الآن لأنه أعادني إلى هنا.

ظهر ميتش واقفاً في الباب، وأعلنت سالي بزهو:

ـ ستبقى هنا.. أليس هذا رائعاً؟

ـ أواثقة أنت؟

مشى ميتش خطوات عبر الغرفة، وما إن ابتعدت سالي عن شيلا حتى وضع ميتش كلتا يديه على كتفي أخته متطلعاً في وجهها، وتصنعت الابتسام وسألته:

ـ ألا تظنها فكرة جيدة؟

ـ بلى.. كنت أريدك أن تأتي معي.. لكن إذا كنت تفضلين البقاء هنا.. فأنا أعتقد أن ذلك سيكون الحل المثالي.

التقت عيناه عيني سالي وقال لها:

ـ شكراً لك.

أجابته بسرعة:

ـ لا تشكرني.. سأحب بقاءها هنا.

تنهد ميتشل وقال موافقاً:

ـ حسناً، لا أستطيع التأخر كثيراً.. يجب أن أنطلق الآن.

تساءلت شيلا بعفوية.

ـ أيجب؟

ابتسم لها:

ـ هذا ما أخشاه.. فقد تركت كل شيء على حين غرة.

ميتشل جزء حيوي من فريق عمل، وكل شيء لا بد أن يتوقف لغيابه. لقد جاء في أسرع وقت ممكن، وبقي إلى ما بعد الجنازة. لكنه بالطبع الآن مضطر للعودة.. قالت:

ـ المعذرة.. بالطبع يجب أن تعود.

ـ سأتصل بك ما إن أصل إلى المدينة، ولا تقلقي بشأن أي شيء.. سأتصل بشخص ما بشأن..

وألقى نظرة خارج النافذة، عبر الخليج، إلى القصر.. ميتش سيقوم بترتيب الأمور، هي لن تكون مضطرة للذهاب إلى هناك.

قال:

ـ هيا رافقيني إلى الخارج.

أمسك بذراعها وخرجا معاً إلى حيث تقف سيارته، وقبلها مودعاً:

ـ باي بابي.. ارفعي رأسك.

ورفعت رأسها فأحست بأن عينيها قد تبللتا، وهي تراه يمسك يدي سالي بكلتا يديه ويقول:

ـ شكراً لك على كل شيء.. أنت كنز ثمين.

ـ أعرف هذا.. أتمنى لك رحلة موفقة، ولا تقلق علينا.. سترى أننا سنكون بخير..

أحست شيلا بغصة، وأرادت أن تكون وحدها، ولو لبضع دقائق..

راقبت سيارة ميتشل تبتعد.. ثم قالت بصوت أجش:

ـ هل علي أن أغير غرفتي؟ إن كنت سأبقى فلا بد أنك ترغبين أن أنتقل إلى غرفة أصغر.

قالت سالي بحزم:

ـ لا بل تبقين حيث أنت.

ـ شكراً لك.. أتسمحين لي أن أصعد إلى غرفتي قليلاً؟ أريد التخلص

من هذه الثياب.

كانت لم تزل في ثيابها السوداء، وهذا طلب معقول، لكن سالي بدت حزينة وهي تقول:

ـ أوه.. أرجوك، لست مضطرة للسؤال عما يمكن أن تفعلي.. إنه بيتك، وتعرفين هذا.. كأننا شقيقتان.. لطالما أردت شقيقة.

ـ أصحيح هذا؟

التوت شفتا سالي:

ـ نحن الاثنتان ربما يمكننا أن نقف في وجه أخي..

كانت تحاول إضحاك شيلا، وقد كان هذا لطفاً منها.. لكن ربما كان للمزاح جانب جدي جداً، وأكملت:

ـ سأكون في غرفة الجلوس.

ذهبت شيلا إلى غرفة النوم التي أصبحت لها الآن، فلفترة ما، وإلى حد ما هذا بيتها الآن.. ولم تفكر بعد بمستقبلها بوضوح.. كل ما تعرفه هو أنها وحيدة، فسالي وبالرغم من كل رقتها ولطفها ليست شقيقتها، ووظيفة المرافقة هذه قد تكون مجرد نزوة عابرة لها.. وربما ستقرر بعد بضعة أيام أن آخر ما تريده هو «شقيقة» مقيمة معها.

كان العم جايسون أقرب الناس لشيلا من أي إنسان آخر.. حتى من ميتشل نفسه، فزيارات ميتشل للقصر كانت قليلة. ومضى أكثر من ستة أشهر لم تزره شيلا في لندن.. وهي ستفتقد العم جايسون كثيراً، في كل ساعة من ساعات اليوم.

خلعت ثوبها الأسود، وارتدت فستاناً صوفياً سميكاً أزرق اللون.. وكان هناك مجموعةٌ من رسائل العزاء على الطاولة.. فتحها ميتشل كلها وقرأها، وقد أخبرها في حينها عمن أرسلها، لكنه أبقاها لها لتراها.. هذه المجموعة جاءت ضمن بريد اليوم، وهناك المزيد منها في الدرج.. وهي حتى الآن لم تقرأ منها شيئاً.. وربما كان عليها أن تقرأها الآن ما دامت تحت تأثير الصدمة كي لا تتجدد أحزانها عندما ستقرأها فيما بعد. لكنها حين أمسكت أول رسالة وقرأت سطورها الأولى انهمرت الدموع بغزارة من عينيها، فأزاحت كل الرسائل جانباً، وألقت وجهها بين يديها وأخذت

تنتحب دون صوت.

كان العم جايسون خلال الأشهر الأخيرة سندها الوحيد، رغم أنه كان رجلاً محطماً.. كانت تعلم أنها قادرة على الإنفضاء بهمومها ومشاكلها إليه، وأنه مستعدٌ للتضحية بحياته من أجلها.. كان موته خسارة خلفت فراغاً كبيراً في حياتها، لا تعرف كيف ستملأه. إنها وحيدة الآن، تبدأ من جديد في غرفة غريبة عنها.. نظرت حولها باهتمام لم تكن تشعر به من قبل، لتجد أنها غرفة جذابة جداً.. غرفتها القديمة احترقت، مع كل ملابسها.. وكل معدات التجميل التي على طاولة الزينة والتي في الحمام، بعضها أعطتها لها سالي والباقي ابتيع لها خلال اليومين الماضيين.. حتى حقيبة يدها جديدة. كل شيء جديد، بما فيه حياتها.. لم يبق شيء من الحياة الماضية سوى هيكل القصر، وقليل من الأثاث، وكراهيتها الدفينة لميل ورايت.

غسلت وجهها، ومسحت عينيها جيداً لتزيل أثر البكاء.. ثم تزينت بمهارة، مع أنها لم تكترث لزينتها خلال الأسبوع الماضي، ولا اهتمت لمظهرها وهي لا تهتم كثيراً الآن، لكن كبرياءها عاودتها، ولن تظهر محطمة أمام القرصان.

مرت نصف ساعة قبل أن تطل سالي وتقول:

ـ تعالي لتتناول الشاي.

ـ حسناً.

كانت لا تزال تجلس إلى طاولة الزينة.. متشاغلةً بفتح الرسائل وقراءتها. دخلت سالي الغرفة وجلست على السرير، وقالت مشفقة:

ـ كان يوماً رهيباً لك.. أليس كذلك؟ الجنازة وكل شيء؟

ـ أجل. كان كذلك.

ـ واضطرار أخيك إلى السفر.

ـ أجل.

ـ إنه رائع.. أنت محظوظة.

ـ أجل أنا محظوظة.

لا زال عندها ميتشل وليس لدى أي فتاة أخ مثله.

ـ وأنا كذلك محظوظة.. بوجود ميل.

نابعت سالي وهي تنظر إلى المرآة، لترى انعكاس صورتها فيها:

ـ هناك أشياء كثيرة لا تتفق بشأنها.. لكنه رائع.. فعلاً.

قالت شيلا بهدوء:

ـ ألا يبالغ في حمايتك؟

هزت سالي كتفيها:

ـ أحياناً.. لكنه أخرجني من ورطات عدة مرات..

تجهم وجهها قبل أن تقول: ومن أسوأ ورطة مرت بي.

وفهمت شيلا أنها تعني زواجها، فالرجل كان شاباً وسيماً، من عائلة جيدة، لعوب، لم يقمْ بعمل في حياته.

حدث هذا منذ زمن طويل، وقبل أن يمتلك ميل ورايت مؤسسة سوليڤان، لكن الجميع كان يعرف كيف حاول منع الزواج، وكيف هربت سالي وتزوجت يوم عيد ميلادها.. ثم، وبعد ستة أشهر، كان الزوج الشاب قد حطم سيارته وهو تحت تأثير الخمرة والمخدرات فقتل مع فتاة كانت معه.. لكن قبل هذا بكثير، كان الكتاب من متصيدي الشائعات ينشرون الأقاويل، والشائعات التي تتردد حول المشاجرات المتكررة بينها وبين زوجها، وعن عدد المرات التي غادر فيها الزوج بعض الحفلات بصحبة امرأة أخرى. وكان من المقدر لهذا الزواج أن يتداعى خلال أسابيع، لكنها حاولت البقاء متماسكة لستة أشهر، ثم جاء شقيقها لينقذها.

قالت سالي وعيناها ترمقان شيلا بثبات:

ـ كان يجب أن أصغي إليه.. إنه صخرة يُعتمد عليها.

ولا بد أنه سيكون كذلك بالنسبة لسالي.. فالكابتن ورايت بعثني دائماً ببحارته رغم أنه لا يكترث كثيراً للغرباء.

لقد قال قبل قليل لشيلا: «أهلاً بك في العائلة» وها هي الآن شقيقة سالي البديلة.. أيعني هذا أنه يعتبرها شقيقته أيضاً؟ ربما تكون الآن تحت رعاية ميل ورايت، لكنها لم تتوقف عن كراهيته.. إلا أن العيش هنا لن يكون صعباً، لأنها أحبت سالي فعلاً.

في أول أمسية لها في البيت، وبعد تناول الشاي، شاهدتا التلفزيون لفترة، ثم استمعتا إلى الموسيقى، من جهاز تسجيل كان يبدو كقطعة أثرية

قديمة.

كانت سالي تفضل الموسيقى الصاخبة.. وكانت هناك مكتبة موسيقية غنية تضم تسجيلات عديدة.. وقد كان بإمكان أي كان أن يجد في هذه المكتبة ما يستهويه من الموسيقى.

تناولت مع سالي كوباً من الشاي، وتعشتا معاً. كان الطعام لذيذاً. ومع أنها كانت غير راغبة بالأكل، إلا أنها أكلت، فعليها أن تبقى قوية.. لم تتحدثا كثيراً، فسالي كانت تعلم أن هذا يوم سيء لشيلا، هكذا لم تحدثها، وها هي الموسيقى تصدح وكلتاهما جالستان في مقعدين وثيرين بذراعين. كانت سالي متكورة داخل مقعدها، وشيلا ممددة إلى الأمام بينما شبكت يديها خلف رأسها.

حين رن جرس الهاتف، التقطت سالي السماعة وقالت آلو.. ثم أعطت السماعة لشيلا:

ـ إنه أخوك.

كانت شيلا تنتظر مخابرة من ميتشل، فقفزت بسرعة:

ـ آلو.. ميتش؟ هل وصلت سالماً؟

ـ بالطبع وصلت سالماً.. وكيف حالك؟ هل هدأت أعصابك؟

ابتسمت:

ـ تماماً..

ـ هل من مشاكل؟

ـ أبداً.

إنها بالطبع مضطربة، لكن الحزن شيء يجب أن تتحمله بنفسها فقط..

قال ميتش:

ـ عظيم.. هذه روح طيبة.. دارلين هنا تود مكالمتك.

قالت صديقة ميتش الرائعة الجمال بصوتها الأجش:

ـ مرحباً.. لا أستطيع القول كم أنا آسفة بشأن كل شيء.. صحيح أنني لم أقابل العم جايسون من قبل، وأعرف أن خلافه مع ميتش كان يفسد الأمور.. ولكن لا بد أنه كان عجوزاً رائعاً.

ـ لقد كان كذلك.

ـ واحترق القصر كذلك، وأنا لم أشاهده أيضاً.

بدت وكأنها ترى أن جايسون سوليڤان والقصر متماثلان في القدم..

وبعد تنهيدة عميقة سألت بصوت واضح:

ـ هل أخبرك ميتشل عن أخباري؟

ـ لا.

ـ أوه.. لقد حصلت على دور رائع في مسلسل تلفزيوني.

وطفقت دارلين تخبرها كل شيء عن الدور والقصة، إلى أن استعاد ميتش السماعة من دارلين قائلاً:

ـ هذه المخابرة ستكلفني كثيراً.. سأتصل بعد يومين.. أنت بخير الآن؟.. إذن وداعاً.

قالت شيلا لسالي:

ـ هذه صديقته.. اسمها دارلين ابلاريك.. إنها ممثلة، ولربما تكونين قد شاهدتها.

وذكرت لها تمثيلية لعبت فيها دارلين دوراً صغيراً وإعلاناً ظهرت فيه أيضاً، لكن سالي هزت رأسها تسأل:

ـ أهي جميلة؟

ـ جداً.

لدارلين شعر أحمر داكن، ناعم وطويل ووجه كلعبة الباربي وسألت سالي:

ـ ولطيفة؟

ـ تعجبني. لطالما كانت لطيفة معي، وتبدو مناسبة جداً لميتشل.

عادت سالي إلى مقعدها، والتقطت فنجان القهوة وهي تقول:

ـ إذن، هذه صديقة ميتشل.. وماذا عنك؟ أليس لديك صديق مميز؟

ـ لدي أصدقاء، لكن لا أحد مميز..

بدت سالي غير مقتنعة:

ـ بالنسبة لمن هي بمثل جمالك يجب أن يكون هناك أحد.

ـ شكراً لك سالي.

قبل لها من قبل إنها جميلة، حين نظرت إلى صور نساء سوليڤان

القديمات رأت بينهن وجهها، وعرفت أنها جميلة حقاً. ولطالما جذبت الرجال أينما ذهبت.. لكنها لم تكن لتبتعد كثيراً. ومن كان يلاحقها وجد أن لا وقت لديها للرجال، فالقصر كان يستنفذ جهدها، وكانت علاقاتها لا تستمر لوقت طويل.

ـ لماذا؟

هزت كتفيها.

ـ لم ألتق بشخص أثار اهتمامي إلى هذا الحد.. ولا أظنني أحببت من قبل.. ولم أجد بكل تأكيد رجلاً أستطيع العيش معه، أو بدونه. وماذا عنك؟ كم مرة وقعت في الحب؟

كان لسالي حياة واسعة.. بالمقارنة مع ماضي شيلا.

جمدت الابتسامة على وجه سالي، وقالت:

ـ مرة واحدة فقط.

وعلمت شيلا أنها تتذكر مأساة حياتها، لا بد أنها أحبت الرجل الذي تزوجته.. فجأة أحست بعاطفة تشدها إليها، وتمنت بأن يكون المستقبل أكثر إشراقاً لهذه الفتاة التي يبدو للجميع أن لديها كل شيء.

رفعت سالي فنجان الشاي مبتسمة:

ـ لنشرب نخب المستقبل.

شهقت شيلا:

ـ كنت أفكر لتوي بهذا.. وآمل بمستقبل أفضل لكلينا.

ـ لن تكوني مشغولة كثيراً الآن.. وسيكون لك متسع من الوقت للتفتيش عن شخص مميز.

بدا هذا لشيلا أمراً رائعاً.. لكن لا يجب أن تبدأ بالتفتيش اليائس عن الحب لمجرد أن يكون هناك شخص مقرب منها.. عادت سالي إلى الابتسام:

ـ كيف يجب أن يكون شكله؟

ضحكت شيلا:

ـ وماذا تقترحين؟ أن أضع لائحة وأرسلها إلى الكومبيوتر؟

ـ هاي.. ولمَ لا؟ لم أفكر من قبل بهذا.. لكنك لن تحتاجي إلى

كوبيتو . . ستجدينه بسرعة كافية . . كنت فقط أتساءل أي نوع من الرجال يستهويك .

عادت ذاكرة شيلا إلى الوراء ، وكأنها تسترجع أحداث شريط يمر أمامها بسرعة ولمعت الوجوه أمامها لفترة قصيرة . لقد شعرت بالإعجاب تجاه بعض معجبيها ، لكنها في النهاية ، كانت تتركهم وسبيلهم ، أو تصدهم عنها . . لم تجد بينهم من يثيرها ، كما تعني سالي . . وابتسمت :

ـ ربما أكون باردة منزمتة ، ولا أستطيع التفكير بنوع خاص يمكن أن يثيرني من النظرة الأولى .

هبط حاجبا سالي ، ثم ارتفعا ، وهي تفكر بما سمعت ، ثم ابتسمت :

ـ لا تقولي إنك باردة . . فأنت مجرد سيدة هادئة متحفظة .

ظنت سالي أن هذا نوع من التحفظ من جانب شيلا . . لكن لو كان لشيلا رجل مثالي ، لما امتنعت عن أخبار سالي .

من بين الرجال الذين استهوتهم ، لم يتمكن أحد منهم أن يثيرها بغزله . ولم يكن لديها أحد تلجأ إليه إذا احتاجت سوى مينش . . وهو بعيد عنها ، يحيا حياته . . وربما كان من الأفضل لها أن تبقى هكذا .

أدارت سالي جهاز التسجيل لتستمع إلى أغنية أخرى ، وأصغت شيلا ، وهي تتساءل بما تفكر به هذه الفتاة ، فمعظم أغاني الحب التي تستمع إليها كانت حزينة وتتحدث عن التعاسة . . لكن سالي ابتسمت حين لمحت نظرة شيلا :

ـ أظن أن علينا الذهاب للتبضع في الغد .

ـ أجل . لا بأس في هذا .

ـ سأشتري لك بعض الثياب . . فستحتاجين إلى كل نوع منها .

لم تكن شيلا تملك كل أنواع الثياب . . حتى أنها لم يكن لديها الكثير . . لكنها قالت بحذر :

ـ لا أريد الشراء بجنون . . يجب أن أحترس ، فليس لدي مال كثير .

ردت سالي بخفة :

ـ لدي حساب جاري . . سنقيم حفل عشاء يوم الجمعة ، وستحتاجين إلى فستان جديد ، كبداية .

لم يكن المال مال سالي ، وإلا لقبلت شيلا العرض ، على أساس أنه قرض . . فقد يعطي مبل ورايت أخته كل شيء تطلبه ، فالمال له . بينما الراتب شيء آخر ، فهي تكتسبه ، ولا تريد شيئاً من مبل ورايت قد تشتم منه رائحة الإحسان . . وقالت :

ـ أفضل أن أشتري ملابسي بنفسي . . وأظنني قادرة على شراء فستان سهرة .

تجهم وجه سالي ، فأحست بالإشفاق واعتذرت :

ـ آسفة . . كان هذا لطف منك . . لكنني لا أستطيع شراء حاجياتي من مالك الخاص .

لم تعتد سالي على من يعارضها ، فعبرت عن استيائها بلطف :

ـ ولماذا؟ سيكون الأمر مسلياً ، فأنت خسرت كل ثيابك ، وهذه الأشياء القليلة التي اشتريتها تبدو مزرية . . وكنت أتطلع شوقاً للإنفاق والتبذير .

وسيكون هذا رائعاً . . لقد تعودت شيلا على ارتداء الجينز بشكل أساسي والقمصان ، وفي أفضل حال التنانير ، لكنها تتذكر امتلاكها لثياب جميلة ، وتفتقد لها . . وأحست فعلاً أنها مزرية في فستانها الذي لا شكل له . . وفي هذا سالي محقة . . وقالت :

ـ حسن جداً . . سأشتري بعض الأشياء . . لكن فقط ما أستطيع تحمله .

أحست سالي بالسخط :

ـ أوه . شيلا! لا تكوني عنيدة هكذا! اسمعي شيلا اسم كبير ، هل أناديك إيلا كما يناديك مينش؟

ـ إذا أحببت . . لقد مضى زمن طويل لم ينادني أحد هكذا . . منذ كنت طفلة . . مينش لا يناديني هكذا عادة .

ـ حسناً . . سأناديك أنا .

توقفتا عن الجدال ، ومضتا تصغيان إلى الموسيقى ، وتشربان الشاي ، ثم تحدثت سالي عن المدعوين إلى العشاء : محام ، ورجل علاقات عامة ، فتاة تعمل في تصميم رسومات القماش ، وزوجين تعرفهما شيلا قليلاً .

لم تكن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بكثير ، حين سمعتا صوت سيارة ، وكانت سالي تدير شريطاً جديداً . . فقالت :

ـ إنه ميل.

لو دخل إلى هنا فسيبدد السكون بالنسبة لشيلا، لكنها لن تستطيع التهرب.

دخل ميل، يبتسم لهما معاً. ثم جلس وسأل شيلا:

ـ هل يعجبك هذا النوع من الموسيقى؟

هناك من يغني بصوت يبدو مخنوقاً ترافقه أصوات علب صفيح. وكان على شيلا أن تعترف:

ـ إنها المرة الأولى التي أسمعها.

قال ميل:

ـ مع شيء من الحظ، ستكون آخر مرة.

احتجت سالي:

ـ أتماتعان! إنه صديق لي، هذا الذي يغني..

ـ يجب أن يتوقف عن هذا، فلن يبيع من تسجيلاته شيئاً.

قالت سالي فجأة:

ـ تبدو متعباً.

أحست شيلا بخفقة ألم في قلبها، فلطالما قالت هذا مراراً لعمها جابسون.. لقد تصورت أن القرصان لا يتعب، لكن بالطبع، لا يوجد أحد لا يشعر بالتعب.. فالتجاعيد حول عينيه كانت عميقة، وممتدة من الأنف حتى الفم، وتقدمت منه سالي قائلة:

ـ هل تناولت الطعام؟

بدت أكبر عمراً، وأكثر نضوجاً، في قلقها على أخيها.

وأجابها: نعم.

بدا أمام شيلا قوياً كالثور، يستطيع المضي دون طعام أو نوم لأيام، وبإمكانه أن يستعيد قوته بعد وجبة واحدة ونوم مريح لثماني ساعات.. إلا أنه نظر إلى شيلا وهو يقول:

ـ كان اليوم متعباً.. لنا جميعاً.. ويجب أن نرتاح.

قالت سالي:

ـ انتظرنا عودتك.. حسناً.. أنا انتظرتك.. أردتك أن تسوي لي

مشكلة.. سنذهب غداً للتبضع.. إيلا تحتاج إلى ثياب.

ـ إيلا؟

ـ اختصار لـ..

ـ فهمت.

بقيت شيلا صامتة متصلبة.. لم ترغب أن يدعوها بهذا الاسم. تفضل أن يدعوها الآنسة سوليڤان.. لكن لا شيء تستطيع قوله أو فعله. وهي تعلم جيداً أن سالي لن تتوقف عن الجدال حتى تحصل على ما تريد.. وتابعت سالي:

ـ عليها أن تشتري ملابس جديدة، أليس كذلك؟ لم يبق لها الحريق شيئاً، وستحتاج كل شيء.. فستان ليوم الجمعة مثلاً.. أريد أن تشتريه على حسابي، لكنها تصر على أن تدفع ثمن كل ما تشتريه بنفسها.

سأل شيلا:

ـ أكنت ستشترين فستان سهرة لو لم تقبلي بالعمل كرفيقة لسالي؟

بالطبع لا.. وهزت رأسها فقال معقباً:

ـ إذن، واضح أن هذا مرتبط بالوظيفة.. على فكرة، يجب أن تقبضي راتب الشهر الأول..

قدم لها شيكاً بالمبلغ، وكان يعلم أنها على الأرجح مفلسة.. أمورها معقدة جداً، وهي بحاجة لهذا المبلغ لتنفق منه خلال الأسابيع الأربعة القادمة، وهي محظوظة لوجود سقف يأويها، ووجبات مؤمنة. إذا كانت الملابس جزء من الوظيفة وهي مجرد ثياب عمل، فستقبلها.. أخذت منه الشيك وهي تقول:

ـ شكراً لك.

فسأل:

ـ بعد أن سوينا هذا الأمر، هل باستطاعتكما النوم الآن؟

وفي طريقهما إلى غرفتيهما.. قالت شيلا:

ـ ما كان يجب أن تشركي أخاك في الجدال.

قالت بخبث:

ـ الغاية تبرر الوسيلة.. ألم تسمعي بهذا القول؟

ـ أوه . . بلى . . سمعت به لكنك تبدين وكأنك مؤمنة به .

هزت كتفيها موافقةً : أحياناً .

حين دخلتا باب غرفة شيلا قبلتها سالي بخفة :

ـ ارتاحي جيداً الآن . . وسيكون كل شيء على ما يرام . . بشأن ذلك المستقبل الذي كنا نتكلم عنه .

الحياة تحمل وعوداً ذهبية لسالي . لكن المستقبل بالنسبة لشيلا كان مظلماً ومشوباً بالتردد والقلق وقاتماً بوجود ميل ورايت .

نامت أكثر مما تصورت . . أخبرتها سالي أن تناول الفطور سيكون في حوالي العاشرة ، وسيكون هذا أول صباح لها تنزل فيه وحدها إلى الأسفل . لم تشعر بسعادة أكبر مما شعرت به في الصباحات التي مرت عليها في هذا المنزل . ولكنها كانت متمالكة لنفسها أكثر .

حيتها السيدة هارتس ، مديرة المنزل عند أسفل السلم . كان كورب هارتس ، الجنائني ، والسائق . كانت هذه المرة الأولى التي ترى شيلا فيها السيدة هارتس بوضوح فقد جاءت وزوجها إلى هنا مع قدوم ميل ورايت ، لكنها لم تلتق بهما حتى ليلة الحريق ، وبالكاد كانت تعرف من يحيط بها في الأيام التي تلت .

ابتسمت للمرأة التي تبدو في منتصف العمر والتي تحمل صينية طعام فارغة عبر الردهة . . وقالت السيدة هارتس :

ـ صباح الخير آنسة . . هل أنت أحسن حالاً الآن؟

وكأنما كانت شيلا تستعيد عافيتها بعد المرض . . وتحظى بعطف الجميع ، المأساة المضاعفة في خسارتها لبيتها وعمها صدمت الجميع . .

وردت شيلا مبتسمة :

ـ أجل . . شكراً لك .

وفكرت السيدة هارتس أن هذا جيد ، فهي لم تر شيلا تبتسم من قبل ، وقالت مشجعة :

ـ لقد أحضرت الصحف ، وبعض القهوة .

بما أن الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد إلا بقليل ، وسالي لا تستيقظ قبل العاشرة ، فقد عرفت شيلا أن ميل هو الموجود على طاولة الإفطار . . مع

ذلك فرؤيته يجلس هناك جعلتها لا تقوى على الوقوف على قدميها . . كانت على باب غرفة الفطور ولم يعد في إمكانها التراجع . . واضطرت للقبول .

ـ صباح الخير .

كانت محقة بشأن عدم إحساسه بالتعب ، فلقد بدا مرتاحاً ، منتعشاً ، جسداً وروحاً ، وأكثر من قادر على التصدي لأي مشكلة قد يحملها له اليوم . . وسأل :

ـ قهوة؟

ـ لا . . شكراً . . أنا . . فكرت أن أتمشى أولاً في الحديقة .

كان يضع المربى فوق شطيرة الخبز المحمصة ، وعدة صحف مطوية قرب صحنه ، إضافة إلى بعض الرسائل ، وهو يصب القهوة في كوب كبير . . كانت تود لو تتناول القليل من القهوة . . لكن هذا يعني الجلوس معه . وسألها :

ـ هل أنت مولعة بالحدائق؟

لم تتردد :

ـ كنت أقوم بمعظم العمل في الحديقة . . أقص عشب المرجة ، وأزرع بعض الخضروات النافعة . . وكانت حديقة جميلة .

ـ أتصوّر هذا .

كان المال قد بدأ يشح ، قبل مجيئه ، حتى أن الخدم الثلاثة المتبقين تركوا العمل . . لكنها هي والعم جابسون كانا في غاية السعادة ، حتى استولى القرصان على حياتيهما . وأجابت :

ـ كما ستكون عليه حدائقكم . . قريباً جداً .

زُرعت الحدائق هنا منذ سنة واحدة فقط ، لكن النباتات الصغيرة كانت مزهرة ، والأشجار قد تجذرت بشكل جيد . . وما هي إلا سنوات قليلة ، حتى تكون هذه الحديقة مكتملة ، في حين ستكون حدائق القصر مغطاة بالأعشاب الضارة .

ـ أرجو هذا .

والتقط أول رسالة من الرسائل الملقاة أمامه . ولأنه قطب ، لفت انتباه شيلا . . كانت رسالة بريد جوي انتظرت أن يفتحها رغم أنها قد لا تعنيها

البتة وأحست بالغيظة لأن شيئاً ما قد أزعجه.. لكنه رفع نظره إليها، فاضطرت إلى الاستدارة مبتعدة.

خرجت إلى الحديقة وتحدثت عن الزراعة بشيء من الدراية لمدة قصيرة مع رجل وجدته يعمل هناك. كان اليوم رائعاً وهي تتجول في الحديقة، لا تكاد تنظر إلى جهة القصر، إلا أنها ما زالت تتوهم أن الصاعقة لم تسبب سوى القليل من الأضرار.. كيف أصبحت مقبولة في هذا المنزل بسهولة حتى أن القرصان بنفسه يصب لها القهوة ويفتح بريده أمامها.. حتى تلك الرسالة التي جعلته يعقد حاجبيه الأسودين.

تأخر الوقت كثيراً على القول للعم جايسون إن ميل ورايت لديه نقطة ضعف، وإنه يعود إلى منزله متعباً، وإن بعض الرسائل تعكر مزاجه وتجعل بداية يومه سيئة، لكن تلك الرسالة نفسها، أعطت ليومها بداية جيدة، جعلتها تحس بالسعادة.. وقفت في وسط مرجة ناعمة، مجزوزة العشب حديثاً، تنظر عبر الخضرة الممتدة أمام القصر.. حيث بكى عمها حين قال له ميل ورايت إن لا قيمة له، إلى أن توفي قبل أسبوع مضى. رؤيتها ورايت مع تلك الرسالة منحتها إحساساً بمذاق الانتقام.. لقد أيقنت أنها سترافب، وتصغي، وتبحث عن طريقة لكي تسبب له الأذى.. صحيح أن هذا لن يقيد العم جايسون بشيء الآن.. لكنها قد تكون الطريقة الوحيدة لتحرر نفسها من هذه المرارة التي تنهش أعماقها.

* * *

www.liilas.com

{doode}

٣ ـ قصر العتمة

بقيت شيلا في الحديقة حتى سمعت صوت الحصى تحت إطارات سيارة مسرعة، وشاهدت السيارة السوداء الكبيرة تنسلق التل. حينئذ دخلت إلى غرفة الفطور.. وسألتها السيدة هارتس وهي ترتب المنضدة:

ـ مستعدة للفطور آنسة؟

ردت:

ـ سأنتظر سالي.

ـ كما تحبين.. هل أقدم لك الشاي أم القهوة؟

ـ القهوة ستكون رائعة.

كانت الصحيفتان ما تزالان في مكانهما، وهناك رسالتان أيضاً، كلتاهما موجهتان إلى سالي، إحداهما مرسلة بالبريد الجوي، وكانت شيلا متأكدة أن ميل ورايت كان على وشك أن يفتحهما.. فالطريقة التي كان يمسك بها الرسالة كانت تشير إلى أنه كان يهم بتمزيق المغلف، لكنه حين رفع نظره إلى شيلا، ورأى أنها تراقبه.. غير فكره.

الطابع على الرسالة إسباني، وعلى الرغم من عدم وجود اسم وعنوان المرسل إلا أنها كانت واثقة أنها من الصياد الاسباني.. لقد بعثت له علاقة سالي الأخيرة قلقاً لا ينفك يراوده بين الحين والآخر.

ارتشفت شيلا قهوتها وفكرت: لن أمانع أبداً في أن أقول لأخيك إنك عدت إلى.. لست أدري ما اسمه.. فهو أكثر تخلفاً من آباء العصر الفيكتوري المتخلف.. فسالي في الواحدة والعشرين، ثم أنها كانت متزوجة، وقد جالت في أنحاء العالم.. وهي بكل تأكيد لا تحتاج إلى هذا

النوع من التعصب.

لن أستطيع تحمل طريقة تحكمه.. وابتسمت لتفكيرها بميتشل وهو يضع لها القوانين الصارمة، ويتحقق من شخصيات أصدقائها، قد ينصحها ميتش لو طلبت النصح.. لكنه لن يفصم لها علاقة أبداً.

قرأت شيلا صحيفة، وكانت قد أنهت نصف الأخرى حين ظهرت سالي مبتسمة، وقالت وهي تمسك برسائلها:

ـ مرحباً.. أنت هنا من وقت طويل؟

راقبت شيلا سالي وهي تقرأ الرسالة، لاحظت ابتسامة حلوة، سرّية، وكأن شخصاً ما يهمس في أذنيها بالكلمات الحلوة.. وعندما أعادت سالي الرسالة إلى المغلف ووضعتها في جيبها، قالت لها شيلا:

ـ شاهدها شقيقك.. وأظنه كان متردداً أيفتحها أم لا.. لكنني كنت واقفة هنا.. ولم يبدُ عليه الرضى.

قالت بمرح:

ـ ما كان سيعرف الكثير لو قرأها!

وهذا ما أخبر شيلا بالكثير.. وعادت نظرة الخبث إلى سالي وكأن الأمور تجري على ما يرام، وتساءلت شيلا ما إذا كان هناك نوع من الرموز متفقان عليها كي لا يعرف أحد معنى الكلمات المخبأة بين السطور.. بدا واضحاً أن سالي كانت تنتظر سؤالاً آخر، لذا سارعت شيلا إلى القول:

ـ رب لن لصبصد التإسلاني انبلط ـ آ؟

ـ غويدو!

ـ ألا زلت مولعة به؟

ـ ربما.

جلست سالي وبدأت تصب القهوة.. وسألتها شيلا:

ـ إذن لماذا تركت أخاك يعيدك إلى هنا؟ لست طفلة.. لماذا يدير لك حياتك؟

كانت سالي ترتدي ثوب نوم أزرق جعل بشرتها تبدو دافئة ناعمة، بدت غنية مدللة من قمة شعرها الأشقر المتألق إلى صندالها الطفولي الناعم.. وأجابت:

ـ لأنني لست مخلوقة لأتزوج رجلاً فقيراً.. إلا إذا أبقى ميل لي على مصروفي.

لكنها وحبيبها الإسباني على اتصال دائم، وهذا أمر لا يرضي ميل ورايت.. وحذرتها شيلا:

ـ لو كنت مكانك، لمنعته عن الكتابة إلى هنا.. حتى ولو كنتما متفقان على رموز خاصة في الكتابة، إلا إذا استيقظت في وقت مبكر لأخذ البريد قبله.. أو سأفعل هذا لك لو أردت.

ابتسمت سالي:

ـ شكراً لك، أتفعلين لي هذا؟ أنا أقدر لك فعلاً هذا.. لكنني لا أستلم كثيراً من الرسائل منه، مجرد رسالة بين حين وآخر.. ليتأكد ميل أنها رسائل قليلة متفرقة تصل في أوقات متباعدة.

ـ أوه؟ ماذا يجري إذن؟

ـ هناك شيء يسمى بخدمة الهاتف.

وكادت شيلا أن تشرق بقهوتها.. من الواضح أن ميل ورايت لا يستطيع شيئاً أمام مثل هذه المغامرة، وسواء كانت العلاقة جدية أم لا فإن من الرائع أن تعرف أنهما قادران على خداعه.

سألتها:

ـ ما شكله؟

لمعت عينا سالي.

ـ أوه.. إنه رائع الوسامة.. شعر أسود مجعد، طويل، مثير.. وعيناه كأنه الشيطان.

حدثت شيلا نفسها: لا أريدك أن تتأذي.. لكنني أحب أن يأتي هذا الشيطان الأسود العينين ليتقم من القرصان. وقالت:

ـ حظاً سعيداً.

ومدت سالي يدها لتمسك يد شيلا، وهي تقول:

ـ أنت حقاً تعنين هذا.. أليس كذلك؟ أنت فعلاً تتمنين لنا السعادة.

كان في صوتها غصة واضحة، فجأة ارتسمت على وجهها علامات الجد، وقالت: بالطبع.

لقد تمنت لسالي الحظ السعيد، لكن أمنية قلبها كانت أن يحظى ميل ورايت بحظ سيء إلى أن يسأم من حياته. قالت سالي:

ـ أنا مسرورة لشعورك هذا.. وقد أحتاج إلى مساعدة يوماً.

ـ أنا حاضرة لأي شيء.

بدا لها أن انتقامها من القرصان سيكون سهلاً، ووجدت أن من الصعب عليها مواجهة نظرات سالي لها وأحست بالسعادة لإقفال موضوع غويدو للوقت الحاضر.. إذ قالت سالي:

ـ أكاد أموت جوعاً.. كوني طيبة واضغطي الزر للسيدة هارتس.. أتسمحين؟

وقفت شيلا تستدعي السيدة هارتس.

كانت بمثابة تجربة جديدة لشيلا أن يقوم الآخرون بخدمتها.. لكن سالي كانت معتادة على هذا الأمر.

بعد تناول الإفطار صعدتا معاً إلى غرفتيهما، حيث اختارت سالي ثوب اليوم من خزانة مليئة، تحتل جداراً كاملاً في غرفة نومها.. كل ما لديها كان يحمل اسماً لامعاً في عالم الأزياء.. وكانت شيلا ترى مدى التضحية التي ستقوم بها سالي بزواجها من أي رجل لا يوافق عليه أخوها.

للأسف، لم تتمكن شيلا من رؤية نفسها تخون الثقة وتساعد سالي، لترضي نفسها برفع ضغط دم ميل ورايت.

كان لشيلا سيارة ميني صغيرة.. سيارة العم جايسون «الديملر» كانت سيارة الشركة، وقد ذهبت مع الشركة.. وخرجت الميني من الحريق دون أن تتضرر.. كانت متوقفة في مرآب السيارات.. وقد جاء بها مبتشل إلى هنا لتستخدمها. وأخرجت سالي مفاتيح سيارتها الحمراء اللامعة الصغيرة، وفتحت سيارتها دون أن تعير الميني التفاتاً.

ـ أترغبين في القيادة؟

تراجعت شيلا إلى الوراء:

ـ أوه.. يا إلهي.. سأخاف حتى الموت من قيادتها!

ـ ألا تحبين قيادة السيارات؟

ـ بلى، لكنها سيارة رائعة.. لنفترض أنني صدمت جداراً أو أي شيء

آخر؟

ـ ولماذا التأمين إذن؟ ثم إنني لا أحب القيادة كثيراً. ولو أخذت معي غاتس، فلا بد أن يتجسس عليّ لصالح ميل.

ضحك السائق الذي كان يقف تحت غطاء محرك «اللوتس» المرفوع وأكملت سالي:

ـ يظن أنني أمزح.

كان السائق رجلاً صغير الجسم قوياً. له وجه رقيق وعينين حادتين.. خرج من تحت غطاء السيارة مبتسماً، وضحكت سالي، لكن شيلا تساءلت عما إذا كان هناك بعض الحقيقة فيما ذكرته سالي. وقالت سالي، وهي تفتح باب السائق:

ـ أنت لن تقودي إذن؟

لامست شيلا المقود بشوق.

ـ سأحب هذا.. لكنني لن أستطيع ركوبها وقيادتها هكذا.. لا أجرؤ على مثل هذه المخاطرة، مع هذا النوع من السيارات.

كانت شيلا قد قادت السيارات التي كان يشتريها مبتشل.. كان دائماً يغير سيارته.. لكنه كان يشتريها مستعملة، كصفقات.. ولم تكن تثلج لشيء يخص مبتشل.

قال السائق:

ـ أتريدين قليلاً من التعليم آنسة؟

وسرت شيلا.

ـ هذا لطف منك.. أجل أريد.

قالت سالي:

ـ حسن جداً.. يجب أن نذهب الآن.

كانت سالي سائقة ماهرة.. وأحست شيلا بالأمان إلى جانبها وهما يسلكان طريق الساحل المتجهة إلى البلدة المجاورة التي تبعد عشرين ميلاً.. كان ممتعاً أن تجلس في السيارة الأنيقة المنطلقة بنعومة. تصغي إلى الراديو، وتهدر سالي المتواصل..

وركزت شيلا على الاستماع إلى سالي كي توقف التفكير بالعم

جايسون . . فقد كان من السهل عليها أن تجهش بالبكاء، وأن تختنق . . لكنها تقبض أجرها للقيام بمثل هذه الرحلة. ولأن تكون رفيقة مرحة. هكذا ركزت اهتمامها على الأشياء التي كانت تقولها سالي.

يجد المرء نفسه مضطراً للإعجاب بسالي . . ولو لم تكن شيلا ساخطة حين زارتها سالي في القصر لكانت أعجبت بها بومها . . فبالإضافة إلى كونها جميلة، كانت مرحة . . تتحدث بروح مرحة، وبإمكانها سرد قصة ضد نفسها بكل ابتهاج.

لقد جعلت شيلا تضحك حين حدثتها عن ذلك اليوم الذي سمح لها ميل فيه أن تظهر على التلفزيون في دعاية لإحدى شركاته:

ـ لقد أحببت ذلك. لقد قلت حينها: هذه هي، لن أعود شقيقة ميل ورايت بعد الآن . . سأكون سالي ورايت، الموديل.

واستغرقت في الضحك، ثم أكملت:

ـ كان يجب أن تشاهدي الاختبارات . . كانت رهيبة. لكنهم لم يستطيعوا تقديمي، واشترى لي ميل يومها خاتماً رائعاً كتعزية لي. وسافرت إلى إسبانيا لأتغلب على الصدمة.

ـ والتقيت بغوبدو؟

ـ كنت أعرفه منذ زمن . . فنحن نملك الثيلا منذ سنوات . . وكانت عائلته تسكن هناك . . لكن في تلك العطلة حدث ما حدث.

ـ لا أصدق . . لا بد أنك كنت تبدين جميلة جداً . . أنت أجمل من دارلين، صديقة أخي، وهي موديل ناجح.

بدت سالي سعيدة، ثم ضحكت:

ـ صحيح؟ على أي حال، لم أظهر في الفيلم وكأنني موديل ناجح . . مع أن صوري لم تكن سيئة. أمرٌ غريب . . أراهن أن صورك تظهر رائعة . . بتكوين وجهك.

تذكرت سالي الرسومات التي تصور النساء الجميلات اللواتي يماثلنها جمالاً . . وتساءلت ما إذا كانت قد تقي منها شيء . .

سمعت سالي تقول:

ـ متى اشترينا لك ملابس مناسبة، فستبدين مذهلة . . وستحتاجين إلى

جلسة في صالون التجميل.

كانت شيلا تعلم أنها لو ارتدت ملابس فاخرة مثل سالي، فستدير الرؤوس بسهولة . . كانت سالي لطيفة، ولا يوجد الكثير من الفتيات يحبين إبراز جاذبية امرأة أخرى . . قالت شيلا:

ـ أفهم أنك لا ترغبين في أن تبدو رفيقتك مختلفة . . لكن لماذا جلسة التجميل؟

ـ لأنني ذاهبة إلى هناك بعد الظهر، وأنت معي . . وبإمكانهم العناية بك معي.

ـ رائع . . لكن لماذا؟

كانتا عند ذاك تقفان عند إشارة مرور ضوئية، وتطلعت سالي بنظرتها الواسعة الساحرة إلى شيلا قائلة:

ـ حفلة العشاء تلك في يوم الجمعة . . ألم أخبرك عن فرانسيس؟ إنه محام في الثلاثين من عمره، ناجح، لكنه ضخم الجسم . . إنه أحد الرجال الذين يظنهم ميل مناسبين ليكون أحدهم لي زوجاً. وأريده أن يتحدث إليك، كما يتحدث إليّ. لأنه يضجرني جداً.

شهقت شيلا، ثم ضحكت:

ـ هذا رائع! إذا بدأت باحتكار أصدقاء أخيك . . سيطردني من العمل قبل انقضاء الأسبوع الأول.

تغيرت أنوار الإشارة، وداست سالي بقدمها على دواسة السرعة، فانطلقت السيارة . . وكأنها حصان سباق ينتظر إشارة البدء . . وقالت:

ـ لست بحاجة لاحتكاره . . حتى أنك لست بحاجة لأن تهتمي بوجوده . . لكنني أحتاج شخصاً يجعله يبعد نظره عني . . هذا كل شيء.

ـ وماذا عن مصممة رسومات القماش؟

مما قالته عنها سابقاً، تبدو المصممة شابة أنيقة مذهلة . . لكن سالي هزت كتفيها ولوت فمها:

ـ فيونا لن تنظر إلا إلى ميل.

ـ هل هي وميل يميلان لبعضهما؟

تجاوزت سالي بضعة سائقي دراجات هوائية، وباص، قبل أن ترد:

ـ إنها تعمل على هذا . . لكنها حتى الآن لم تحصل على شيء جدي .

لم تكن حياة شيلا مثيرة، كانت هادئة لفترة طويلة . . وأحست أنها تنتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر . .

أشارت سالي إلى محل لمحت شيلا في واجهاته ملابس جميلة . . وأكملت سالي :

ـ موقف السيارات خلف المبنى .

كان الجميع هناك يعرف الآنسة ورايت . . بسرعة وقبل أن تخطو بضع خطوات إلى الداخل التفت حولها مجموعة من المساعدات وهن يبتسمن وكان هناك غرفة خاصة، أدخلتا إليها بكل فخامة .

بادرت صاحبة المحل إلى الترحيب بهما قافزة من وراء طاولة بيضاء مذهبة . . كانت امرأة شديدة النحول، وبدا أن وصول سالي المفاجيء قد أسرها . وقالت :

ـ ما أروع أن أراك . . أنا مسرورة جداً لمجيئك . . كنت أفكر بالاتصال بك . لقد وصلتنا أشياء جميلة جداً .

شرحت سالي لها أنها تود شراء أشياء لصديقتها، وليس لها .

أخرجت لهما فساتين السهرة، جربتها شيلا واحداً تلو الآخر . . وكانت سترضى بأي واحد يناسب مقاسها، فكل واحد منها جميل وأغلى ثمناً من أي شيء كان في خزانة ثيابها منذ سنوات . . ولو تُرك لها الخيار، لاختارت فستاناً بلون أحمر قاني من الشوقين، فلونه رائع، لكن سالي هي التي ستدفع ثمن هذا الفستان، الذي تريد أن ترتديه مرافقتها .

حين ارتدت شيلا الثوب الحريري، الصدفي الألوان، قالت سالي :

ـ أوه . . أجل .

نظرت شيلا إلى نفسها في المرآة الطويلة . . الفستان له طراز رائع . . بسيط، ينسدل بنعومة فوق صدرها، يزيد من نحول خصرها، الأكمام طويلة، والياقة مرتفعة، حين تحركت به أخذ يصدر همساً خفيفاً لذيذاً . . وسألتها سالي :

ـ هل أعجبك؟

ـ إنه رائع . . كم ثمنه . . ؟

قاطعتها سالي :

ـ سنأخذه . . والآن أنت بحاجة إلى بذلة .

لم تنفوه شيلا بكلمة . . إذ كانت سالي تتولى أمر كل شيء، ولا بد أن صاحبة المحل وموظفيها، كن يستغربن تصرف شيلا، إلى أن سألتها إحداهن عن اسمها . وقالت «الآنسة سوليفان» وأدركن من هي . كن يعرفن بأمر الحريق الذي حدث في القصر . فهناك صور لشيلا نشرت في عدة صحف . .

جربت شيلا الملابس التي جيء بها إليها، دون أن تجرؤ على التفكير بقيمة الفاتورة . . ثم، لماذا لا؟ لقد جنى مبل ورايت بعض أمواله من عائلتها . . وقد عادت المؤسسة إلى الازدهار الآن، وكما قال العم جايسون لقد حصل لنفسه على صفقة رابحة . فلماذا تفكر أنها ستكون عالة عليه؟

لكنها، رفرفت عينيها دهشة وهي ترى كل شيء يوضب في علب كرتونية، وكانت سالي تبدو غير مبالية للأمر، فهو ليس بالغريب عليها، مع أن القرصان قد يعترض حين يرى الفاتورة . وفي هذه الحالة، على أحدهم أن يعيد الملابس، لكن لن تكون هي، ولن تلبس شيئاً منها إلا بعد التأكد من الموافقة .

قالت سالي :

ـ سنأتي لاستلامها حوالي الساعة الثالثة .

كانتا قد حجزتا موعداً في صالون التجميل، لعناية كاملة، واستلقت شيلا على طاولة لتتلقى تدليكاً على يد خبيرة . . وبما أنها هنا الآن، فستسترخي وتتمتع . . أغمضت عينيها، وأخذ الزيت الدافيء والأصابع الرشيقة تفكك عقد التوتر إلى أن استغرقت في حلم يقظة كأنها مستلقية على شاطيء مشمس .

تساءلت ما إذا كانت سالي تتذكر الآن حبيبها الصياد . . وراودتها مشاعر الوحدة، فكل ما لديها هو مجرد حلم لحبيب . . على الأرجح ستجد لنفسها حبيباً، وفي وقت قصير . . اثنان من رسائل التعزية، جاءا من رجلين، قالا لها مرة إنهما يحبانها . . أحدهما متزوج الآن، وقد وقعت زوجته معه رسالة التعزية، وكان الآخر عازباً، ولقد سألها إذا كان بالإمكان أن يراها مجدداً . .

كما أن ذلك المحامي الذي يضجر سالي سيكون هناك ليلة الجمعة. لكنه قد لا يضجر شيلا التي تحب الرجال الجديين.. قد يكون مقبولاً. وهي ستبدو جميلة جداً في ذلك الفستان الرائع.

وتساءلت كيف يبدو شكله. وحاولت تصوره.. لكن. وبشكل ما قفز وجه ميل ورايت الأسود الشرير أمام نظرها. مما جعلها ترجع رأسها إلى الوراء. وكأنه ينحني فوقها.. أجفلت المدلكة وسألت بقلق:

ـ أهناك شيء؟

ابتسمت شيلا بقلق:

ـ آسفة.. كدت أغفو.

لكنهم في النهاية، لم يغيروا لها تسريحة شعرها. وجرى نقاش حول الأمر. لكن حين سرحوا لها شعرها. كان يبدو كالغمامة السوداء. بلمعان خاص مميز. وكانت أمواجه تبدو أكثر عمقاً وغنى.

وفي المقهى التابع لمحل التجميل، في الطابق السفلي منه. تناولتا الغداء.. وكانت شيلا كلما نظرت إلى نفسها في المرآة تحس بتوهج لذيذ. التزيين المتقن فعل العجائب. فلقد أبرز ملامح وجهها بذكاء. كما أن ظل العيون كان مناسباً تماماً.. وكان أول رد فعل لسالي أن قالت «واو!» معبرة عن دهشتها وهذا ما أحست به شيلا.

لم يبدُ على سالي أي نوع من الحسد.. وبدت متأثرة بالفعل لتحول شيلا إلى فاتنة مذهلة.. بدت واثقة من نفسها وهي تجلس على مقعد مرتفع على الطاولة تشعر برضى. كأنها الفنان الذي ابتدع قطعة فنية رائعة.. وقالت:

ـ ستذهب إلى نادٍ ليلي هذه الليلة، مع بضع أصدقاء لترقص.. وستكونين مذهلة.

ـ أوه!

توقع صخب المربع الليلي وجنونه، بداصعباً على شيلا.. وقالت:

ـ أتظنين.. أتمانعين لو لم أذهب معك؟ فأنا لا أشعر برغبة للقيام بذلك بعد.

قطبت سالي حاجبيها وبدت مفكرة، ثم قالت مبتسمة:

ـ لا؟.. صحيح.. أظن الوقت مبكر جداً بالنسبة لك.. وأظنك تفضلين أمسية هادئة في البيت.. افعلي ما تريدين.. قلت لك نحن أختان، وهذا ما سنكونه فعلاً.

ردت شيلا شاكرة:

ـ أنت فتاة رائعة.. وأرجو أن أكون نافعة لك كمرافقة.. أعدك أن أبذل جهدي لمساعدتك.

غمزتها سالي:

ـ تعلمي قيادة سيارتي.. وستتمكن من التجول كثيراً.. فأنا لست بارعة في القيادة لمسافات طويلة.

كان غانس ينتظر حين عادتا، وأرسلت المشتريات إلى غرفة سالي، وانجهت شيلا إلى حيث السيارة.. كان السائق ينفض الغبار عن السيارة اللامعة.. وسأل:

ـ مستعدة آنسة؟

ـ أوه.. أجل.. شكراً لك.

كانت تنتظر هذه الساعة بفارغ الصبر.. ولن يكون هناك أي خطر وإلى جانبها سائق محترف.. إنها تحب السيارات، وتحب القيادة.. لكنه بدا قلقاً متردداً، فسألته:

ـ أهناك شيء؟

تابع النظر إليها:

ـ شيء ما قد تغير فيك. لقد اكتسب خداك لوناً مميزاً بفعل الخروج في الهواء النقي.

ابتسمت شيلا، هذا التغيير كان نتيجة الجلوس ثلاث ساعات في محل التجميل، من الرأس حتى القدمين، حتى أظافر أصابع القدمين. أصبحت الآن مدهونة كاللؤلؤ الزهري. وأكمل:

ـ تبدين بصحة أفضل.. والآن.. آنسة، ستقودين أنت، بالطبع. ما نوع السيارات التي قدتيها في حياتك؟

عددتها له.

أخذ غانس يهز رأسه موافقاً، فالتنوع يرضيه، لأن ذلك يظهر أن الفتاة

يمكنها التكيف مع مختلف الأنواع . فتح لها الباب .

ـ تحسسي المقود بينما أشرح لك نظام السيطرة فيها .

أصغت شيلا باهتمام . حين انتهى ، كررت ما قاله لها ، وكان مسروراً أنها استوعبت وفهمت كل شيء ، وقال لها :

ـ أديري المحرك .

قادت شيلا ببطء في البداية ، بلمسة ناعمة . وبعد أن دارت في الممرات المواجهة للمرآب ، والأمكنة الأخرى ، وقامت بيضع مناورات ، لم يعد لديه تردد في تركها تقود السيارة إلى الطريق .

كان الازدحام شديداً على جانبي الطريق ولكن كان بإمكانها أن تنجح فيما لو أخضعت لامتحان . . ونجحت في امتحان غانس لها . . فلقد أعجب بأسلوب قيادتها للسيارة وبابتهاجها وعدم ترددها . . وقال لها :

ـ أنت سائقة طبيعية آنسة .

ـ شكراً لك . . إنها سيارة جميلة . . إلى أية مسافة يمكن أن نذهب؟

ـ هل نتجول قليلاً في البلدة؟

ـ سأحب هذا .

سار كل شيء بشكل رائع . . السيارة كالحلم ، تقوم بما تريده منها . . وإذا كانت سالي تفضل المقعد الآخر ، فلا حاجة لها أن تلمس المقود بعد الآن . . وسيكون من دواعي سرور شيلا أن تصطحبها ، إلى أي مكان تريد .

أمامها يقليل مدخل القصر . لكنها لم تنظر إليه وهي مارة ، بل أبقت عينيها مركزتين على الطريق ، لكنها بدت الآن مسترخية ، ودون شعور فعلت ما كانت تفعله دائماً ، أبطأت من سرعتها عند اقترابها من المفرق .

سألها غانس :

ـ هل ستستديرين إلى اليسار آنسة؟

عضت شفتها ، وقالت :

ـ أجل .

أعطت الإشارة . . لا بد لها من أن تستدير من هنا في وقت ما . . تشعر بأنها على خير ما يرام اليوم . . ستصل حتى مقدمة القصر وتنظر ، قبل أن يتحول ترددها في المجيء إلى هنا إلى حالة مستعصية . ليست بحاجة إلى

الترجل من السيارة . . ستصل فقط إلى الطريق الداخلية التي تمر بين الأشجار حتى واجهة القصر المطلة على البحر ، كي تتمكن من القول لنفسها «لقد عدت» ويمكنني العودة مجدداً . لم تدر رأسها ، كانت تعرف كل شجرة ، وتعرف أية نافذة تمر بها . . استدارت حول القصر متجهة إلى مرآب العربات ، ومكان الاسطبل . . ثم حين وصلت إلى البوابة الرئيسية ، توقفت . . وبحذر شدت الفرامل اليدوية ، وأطفأت المحرك .

لم يتفوه غانس بكلمة منذ غادرا الطريق الرئيسية ، لكنها سمعت صوت تنفسه العميق ، يخرج من بين أسنانه وكأنه صفير . . فرفعت رأسها لتنظر . . الكتلة الحجرية الرمادية للقصر كانت على حالها . . لكن الأبواب الخشبية المؤدية إلى الردهة الرئيسية أزيلت من مكانها . . وكان هناك لوحان خشبيان كبيران مسمران على الباب كتبت عليهما عبارة «خطر . . ابتعد» باللون القرمزي ، ومن خلفها كل شيء يغوص في العتمة ، ومن خلال النوافذ العالية ، شاهدت السماء ، وكأن رائحة الحريق لا زالت تفوح . . ربما في خيالها فقط ، أحست بحدتها في حلقها وراودتها رغبة بالتقيؤ . كل شيء يغرق في صمت شبيه بصمت الأموات . . ما عدا صرير قد يكون حفيف أغصان الشجر مع أنه يبدو صادراً من المنزل الميت حيث لا شيء سوى الظلام والصدى .

مدت يدها لتدير المحرك ثانية ، أحست ببرودة عميقة في داخلها .

راقبها السائق ، فبدت له يداها ثابتتان ، وقامت بالنفاقة بارعة . . عرف من خلالها أنها ستتمكن من القيادة بأمان .

اغرورقت عيناها بالدموع ، لكنها ابتلعتها بقوة ، وعرفت بالضبط ما تفعل . . لم تكن متهوّرة أبداً ، بل ابتعدت عن هذا المكان الذي لم يبق منه شيء . القصر مات ، وكل ما فيها مات معه ، كل ما أحبته تلاشى ، كما تلاشى العم جايسون ولم يعد هناك سوى العتمة والصدى .

خففت سرعة السيارة عند وصولها إلى آخر الطريق الخاصة المؤدية للقصر ، لكن قدمها انزلقت وبدلاً من أن توقف السيارة اندفعت إلى الأمام ، وفي منتصف الطريق ، داست المكابح بسرعة .

كان يمكن لهذا أن يسبب حادثاً . . لكنه تزامن مع توقف حركة السير ،

ومع ذلك كانت اللحظات التالية مشوشة مرتبكة.

ابتعدت السيارات وانحرفت عنها، وتعالت الزمامير، وسمعت سباب السائقين.. كان الأمر ككابوس متنقل، بينما أمسك غانس بالمقود ليعيد السيارة إلى توازنها، ثم ينحرف بها إلى جانب الطريق، حيث توقفت على العشب.. وبأعجوبة، تفادت الاصطدام بالسيارات، مع أن الجو امتلأ بصخب الرجال الذين يعطون رأيهم بالنساء السائقات اللعينات.

مسح السائق وجهه المحتقن بيده، ودفنت شيلا وجهها بين يديها.. لم يحدث معها مثل هذا من قبل..

همست:

ـ شكراً لله!

تمتم غانس بشيء بدا لها كأنه صلاة.. كان ينظر إلى الخلف حيث توقفت سيارة خلفهما، ولم تندهش شيلا.. فقد شاهدتها في المرآة، وأغمضت عينيها، تدع غانس يخرج ليتعامل مع سائقها. شخص ما ربما سيسأل ما إذا كان من المناسب تركها «سائبة» على الطرقات.. وهي في الوقت الحاضر ليست مستعدة.

ـ ما الذي يجري بحق السماء؟

إنه صوت ميل ورايت يصيح.. وفتحت الباب بسرعة:

ـ إنها غلطتي.. لقد انطلقت عبر مفرق التصر بسرعة.

كان وجهه الأسمر شاحباً، لا بد أنه شاهد السيارة وظن أن سالي تقودها.. نظر إلى السيارة، ثم إليها وسأل:

ـ هل أنت بخير؟

ـ أجل.

وسألها:

ـ ماذا تفعلين وراء المقود؟

ـ أرادتني سالي أن أقود سيارتها.. وكنت أتلقى دروساً، وما حدث غلطتي. بالكامل.

تنحنح غانس:

ـ إنها سائقة جيدة جداً.. لقد قادتها كالخبير.

رد ميل بخشونة:

ـ لكن الخبير لا يخرج من مفترق خفي، بسرعة أربعين ميلاً.

ـ أنا آسفة، لم أزر القصر منذ.. لم أكن أعرف أنه لم يبقَ شيء.. لم يبدُ لي الأمر سيئاً للغاية من بعيد، لكنه عن قريب كمدفن كبير.

كان السير قد عاد إلى طبيعته الآن، لكن كل من كان يمر بهم كان ينظر بدهشة.. ونظر إليها ميل ورايت، ثم قال يسأل غانس:

ـ أتظنها سائقة جيدة؟

أكد له غانس:

ـ قيادتها أكثر أماناً من الآنسة سالي.. وما حدث الآن لن يتكرر.

ـ خذ سيارتي.

حياه غانس:

ـ حاضر سيدي.

قال ميل:

ـ وأنت.. خذني إلى البيت.

صاحت بصوت خفيض: أنا؟

ـ إنها أفضل طريقة، كمن يشع عن جواد، ويمتطيه ثانية.

وكان محقاً، ولأن السيارة التي كانت ستحطمها ملك له، فقد كان هذا التصرف أكثر من لائق منه، خاصة أنه جلس قربها وهي تحاول استعادة رباطة جأشها.. كانت تعرف أنها قادرة على قيادة السيارة، وهذا ما ستفعله. ولا يمكنها أن تبدو ضعيفة أمام الرجل الذي يجلس معها على المقعد الآخر.

تنفست بعمق. انتظرت لحظات، ثم خرجت إلى الطريق وعادت بالسيارة إلى المنزل الأبيض.. كانت أبواب المرآب مفتوحة، وكان غانس واقفاً في الخارج وهو يبدو مرتبكاً، لكن، ما إن توقفت شيلا حتى ابتسم.. وقال ميل:

ـ عظيم.. أجل هذا رائع.

قالت:

ـ لم يحصل معي حادث من قبل، فأنا أقود منذ كنت في السادسة عشرة.

نظرت إلى المبنى في مؤخرة الكاراج وقالت كأنها تتحدث إلى نفسها:

ـ يجب أن أعتني بها . . فهي الشيء الوحيد الذي تبقى لي .

ـ تعرفين أن هناك بعض الأثاث في الاسطبل . . طبعاً؟

بدت واجمة للحظات، لقد قال لها مينش هذا، لكنها نسيت حين شاهدت الحالة التي عليها القصر . . وتساءلت ما الذي يمكن أن يخرج سالماً من ذلك الجحيم . . وقالت :

ـ هذا صحيح . . وسيتدبر أخي أمر تقييم سعرها وبيعها .

أرادت النزول من السيارة، لكن الأمر صعب وهو يجلس هناك يتحدث معها .

ـ شقيقك في لندن . . صحيح؟ أتريدينني أن . .

ـ لا . . ! لا . . شكراً لك .

سيكون كثيراً عليها أن يقلب ميل ورايت رماد القصر . . وابتسم :

ـ حسن جداً . . إذا احتجت إلى أي مساعدة . .

ـ شكراً لك .

ربما ستكون أنت آخر شخص ألجأ إليه طلباً للمساعدة . حتى ولو كنا آخر اثنين أحياء، لتمكنت من العيش وحدي .

انفتح الباب من جهتها، ولم تدرك وهي تحاول الابتعاد عنه أنها كانت تلصق ظهرها بالباب، حتى كادت تقع، وقالت سالي :

ـ ماذا جرى؟ قال غانس إن هناك متاعب . . لا تقولي إنك كدت تصطدمين بميل؟ فهذا أمر غير بارع .

تحرك ميل إلى مقعد السائق بعد أن نزلت شيلا :

ـ لم توقت خروجها من المفرق جيداً . . وأنا موافق مع غانس، أنها سائقة أفضل بكثير مما ستصبحين أنت يوماً .

قالت سالي حين روت لها شيلا ما حدث :

ـ هذا أمر يحدث للجميع . . وحصل معي أكثر من مرة .

نظرت شيلا إليها بلهفة :

ـ صحيح؟ إذن آن الوقت لأن يقود أحد عنك، أو تكونين أشد حذراً .

وافقت سالي بحبور .

ـ إذن ستقودين أنت . . أليس كذلك؟ أكان ميل يعطيك درساً في

القيادة؟

ـ لا . . بل كنا نتحدث عن الأثاث الذي سلم من الحريق . . ومينش سيهتم به، سألني ميل ما إذا كان هناك شيء يستطيع فعله .

ـ وهل ستبيعين؟

ـ أعتقد هذا .

ـ دعي ميل إذن يهتم بالأمر . . سيحصل لك على ثمن أفضل مما سيحصل عليه مينش .

ـ أنا واثقة من هذا .

لكنها نبذت هذه الفكرة، فهي لا تستطيع أن تقول لسالي إنها لا تثق بأخيها، مع أن سالي ستكتشف هذا يوماً، فالعدائية لا يمكن إخفاؤها إلى الأبد .

دخلتا غرفة الجلوس، وجلست شيلا تنظر إلى يديها المرتجفتين، وتمتمت :

ـ أشعر بالرهبة .

ـ يبدو عليك ذلك .

صبت لها فنجان شاي :

ـ خذي اشربي هذا . . تنابك رعشة وستكونين على ما يرام بعد دقائق .

ـ بالطبع .

لكن الفنجان أخذ يصطكّ بأسنانها . . وهذا عائد إلى أنها كادت تتسبب بحادثة مروعة، ولأنها اضطرت إلى القيادة والقرصان إلى جانبها . . احتست الشاي الساخن وأغمضت عينيها تفكر : لقد تركته يؤثر عليّ . . وأخذ جسدها يتجاوب مثلما أرادت أن يتجاوب حين دخل السيارة وأقفل الباب وراءه . . أرادت أن تصرخ بذعر .

٤ ـ الوعد

مضت دقائق، قبل أن تتمكن شيلا من الابتسام والقول إنها أصبحت على ما يرام. . توقفت عن الارتعاش، وخف ذعرها، وبدأت تهذر:

ـ كنت أتمتع بقيادة سيارتك، حتى قمتُ بذلك الأمر الأحمق. . لقد جلنا في البلدة، وكان الأمر رائعاً. . غاتس ممتاز. . لقد دافع عني حين. .

ابتلعت ريقها، فاسم ميل كان دائماً يغص في حلقها.

ـ. . . وصل أخوك. . قال إنني كنت على ما يرام حتى ذلك الوقت، وإن ما حدث لن يحدث ثانية.

ـ غاتس رجل طيب.

كانت سالي لا زالت تراقب شيلا عن كثب، ثم ابتسمت:

ـ أتعرفين. . لقد اعتقدت بالفعل أنك صدمت سيارة ميل.

ضحكت شيلا بدورها:

ـ يكفي، لسوء الحظ، أنه شاهد كل شيء.

ـ ربما يكون ما حدث صدفة، لكنني لست أدري قد يكون القدر.

ـ ما هو؟

ـ ربما أنت وميل مقدر لكما أن تلتقيا. . ربما كل ما جرى سببه القدر. . مكتوب في الغيب.

كانت تمزح، لكن المزاح لم يحرك مرح شيلا. . ما من أحد أثّر على حياتها أكثر من ميل ورايت. . حتى عندما لا تراه فإن شبحه يخيم عليها كل يوم، وها هي الآن تعيش في منزله، ووجوده ينهك أعصابها. . وفكرت متجهمة: أفضل أن ألتقي بغوريلا. . وافترّ فمها عن ابتسامة ساخرة قبل أن

تغير الموضوع.

ـ لا زلت غير راضية بشأن الملابس. . ماذا سيقول عنها؟

ـ لقد أخرجتها من عليها. . تعالي وانظري بنفسك.

بدت الملابس وهي خارج العلب تملأ الغرفة، كانت الثياب ملقية فوق السرير وبعضها كان معلقاً على أبواب الخزانة، وعضت شيلا شفتها وهزت رأسها. . واختارت ثوباً لفترة ما بعد الظهر، ونظرت إليه بإعجاب وهي تفرده على ذراعها، وقالت سالي:

ـ ارتدي هذا للعشاء الليلة. . وسيرى بنفسه ما اشترينا.

ـ من؟

ـ ميل بالطبع! سيأتي للعشاء الليلة.

فكرة الالتقاء معه على مائدة العشاء، قلبت معدة شيلا، وقالت:

ـ ليس الليلة. . لست في مزاج للحديث على مائدة عشاء. . سأتناول السندويشات، أو بعض الحساء، أو أي شيء في غرفتي.

قطبت سالي جبينها:

ـ لكن هذا أمرٌ سخيف. . كلاكما سيأكل وحده.

ـ أحتاج أن أكون وحدي. . رؤية ما حدث للقصر عن قرب صدمتني. . وأريد أن أكون وحدي.

ـ آسفة. . أظنني أفهم. . أعني، أستطيع تصور ما تشعرين به. سأخبره أننا سنخرج معاً، كي لا يزعجك أحد.

ـ شكراً لك.

كانت تفترض أنه يجب أن يمضي عليها وقت طويل قبل أن تجد نفسها وحيدة مع ميل ورايت. . كما يجب عليها أن تفكر فيما إذا كانت الوظيفة تستحق هذه المخاطرة. . لكن توقع انفرادها به كان أمراً مثيراً للقلق.

فكرت شيلا كم أنه لأمر جنوني أن تكون هنا في منزل آل ورايت حيث تعامل وكأنها فردٌ من العائلة. وتمنت أن لا يعتبر العم جايسون هذا نوع من الخيانة. سالي وصفت الأمر ممازحة بأنه «القدر» وإذا كان هذا بالفعل مكتوب في الغيب. . فسيكون طالعاً سيئاً بالنسبة لميل ورايت.

كان الفستان الذي سترتديه سالي لهذه الليلة، يبدو براقاً كالذهب

المصقول . . وقالت شيلا تمازح سالي :

ـ ستكونين مذهلة . . للأسف أن غويدو لن يتمكن من رؤيتك .

كانت سالي تمشط شعرها الأشقر الشاحب وتهز كتفيها بالتناغم مع الموسيقى المنبعثة من جهاز التسجيل . . لكنها جمدت حين قالت هذا، أمام المرآة، وتغير صوتها، وبدا عليها الحزن :

ـ سنمرح . . ستكون أمسية جيدة . . إنها مجموعة طيبة . . لكنني سأبقى أنتقده في كل لحظة .

أدركت شيلا أنها تعني هذا . قد لا يكون حبها قد تلاشى كما يأمل أخوها . . وكما تلاشت ذكريات العلاقات الأخرى . . وإذا كان هناك متاعب مخبئة، فقد يقلق هذا ميل، لكن شيلا الآن كانت تفكر بسالي وتحس بالخوف عليها .

فيما بعد، ومن نافذة غرفتها، راقبت شيلا سالي تخرج متألقة سعيدة، ثم جلست لترد على بعض رسائل التعزية .

ربما لا يتوقع أحد منهم رداً . . لكنها باقية في غرفتها على أساس أنها خرجت مع سالي . . تناولت اللحم البارد والسلطة، وبدأت ترد على صديقات المدرسة، اللواتي قرأن التقارير التي كتبت عن الحريق في الصحف . . والكثيرات أعربن عن رغبتهن في رؤية شيلا مجدداً، ودعوتها إلى منازلهن . . ومن يعلم . . قد يأتي وقت تسرّ فيه بزيارتهن .

كتبت العديد من السطور المماثلة مرات ومرات، تشكر لمن كتب، وتوافق على أن عمها كان رجلاً رائعاً وستفتقده كثيراً . . ما من أحد سيعلم كم ستفتقده، لكنها لم تقل هذا .

لم تلحظ كم ركزت على ما تفعل إلى أن أحست بألم في عينيها . . فوقفت متقدمة إلى النافذة تفتحها وتترك الهواء البارد يلفح وجهها المحمّر .

كانت قد سمعت رنين الهاتف أكثر من مرة منذ أن خرجت سالي . . وبدا لها أن الهاتف كان يرن باستمرار في هذا المنزل، أكثر بكثير مما كان يحصل في القصر . في آخر ستة أشهر بالكاد كان يصل العم جايسون مكالمة . .

عاد الهاتف يرن ثانية بينما كانت شيلا تطل من النافذة تملأ رئتيها بالهواء . . ولم تسمع القرع على الباب، ودخلت السيدة هارتس . . حين

التفتت شيلا كانت السيدة هارتس تتقدم منها وتقول :

ـ مخابرة لك آنسة . . إنه شقيقك .

مخابرة من مينسل، مرحباً بها دائماً :

ـ أوه . . شكراً لك .

سألت السيدة هارتس وهي تسير إلى جانب شيلا :

ـ أرى أنك لم تذهبي مع سالي .

ـ لا . . قررت أن لا أذهب .

كان في غرفة سالي خط آخر للهاتف، لكنها ذهبت دون انتباه إلى هاتف الردهة . . إنه الهاتف الذي استخدمته من قبل، وكانت السماعة مرفوعة :

ـ مرحباً طفلتي . أنت بخير ؟

ـ بألف خير . .

ـ أيعاملونك جيداً ؟

ضحكت لهذا :

ـ لا يمكن أن يكونوا ألطف من هذا . سالي محبوبة . . إنها فتاة رائعة .

ـ وأنت أيضاً . . إنها محظوظة لإقامتك معها . لقد اتصلت بستيفنز وغاريس، إنهما سماران محليان، وسيكتبان لك قبل مجيئهما لتفحص ما عندك . . يجب أن تخمني كل شيء .

ولمع أمام نظر شيلا التجويف الأسود الكبير، الذي كان يوماً ما القاعة الرئيسية في بلبون كاسل، وهزت رأسها كأنها تحاول الهروب منه . . فقالت بسرعة :

ـ لا بأس في هذا إذن . . والآن كيف حالك ؟ ماذا تفعل ؟

كان يعمل، وعمل الشهر القادم سيقرّبه منها بحدود الخمسين ميلاً . . وهل هناك فرصة لتراه ؟ تظن هذا، لكنها ستسأل سالي أولاً، فقد ترغب في أن تأتي معها . . ولديها سيارة سبور ممتازة .

كانت على وشك أن تستمر في إخباره كيف كادت أن تحطمها بعد ظهر اليوم، حين انفتح باب المكتبة ووقف ميل ورايت فيه . . كانت شيلا تقف وظهرها إلى الجدار، تسند نفسها جلوساً على حافة الطاولة . . والتقت عيونهما، وارتفع حاجباه دهشةً . . فقد قالت له سالي إن شيلا ستخرج معها .

قال ميشر:

- تبدو الوظيفة مناسبة لك. ابقي معنوياتك مرتفعة. سأتصل قريباً. وأي شيء تريدينه، تعرفين أين تجدينني.

تبادلا الوداع وصمت الهاتف. قال ميل ورايت:

- مساء الخير. غيرت رأيك إذن؟

- كان هناك رسائل قررت أن أرد عليها.

- أتنضمين إليّ في شرب القهوة؟

كان يتقدم إلى غرفة الجلوس، ولو كان لديها أية فرصة، لتجنبت الانضمام إليه. وأضاف:

- أود التحدث إليك.

إذن فهذا أمر، وليس دعوة.

وأول ما راود تفكيرها كان تلك الثياب الغالية الثمن. تعرف أنهما اشترتا الكثير. وستحس بإذلال كبير إذا قال لها هذا الفرصان إنها بالغت.

رفضت عرضه:

- لا. شكراً لك.

- أتمنى أن تقبلي.

هزت كتفيها:

- القليل فقط. هذا إذا كان كلامنا سيكون غير مستساغ.

صب لها القهوة من إبريق كهربائي، وصب لنفسه، وجلست في مقعد بذراعين، وجلس قبالتها، ثم قال:

- ما هو الذي تتوقعين أن لا يكون مستساغاً؟

فكرت: أي شيء ستقوله لي. فالجلوس معك هنا هو أكثر ما يزعجني. مررت أصبعها حول الفنجان:

- ربما قيادتي للسيارة بعد الظهر. أو فاتورة الملابس في الصباح. لا عذر لي في القيادة السيئة. لكنني واثقة أن الملابس يمكن أن تعاد.

- ولماذا تعاد؟

بدت عليه الدهشة للاقتراح، إذن ليس هذا ما يريد الكلام عنه. وأجابت:

- لأنها كثيرة.

- يجب أن تشتري ما يعوضك عما فقدتيه منها في الحريق. وبدت الشائعة معقولة جداً لي.

لا بد أن سالي أخبرته بما اشترتا، وبالطبع هما يعيشان حياة مختلفة عن حياة شيلا. وتذكرت خزانة ملابسها في غرفتها القديمة وكادت أن تقول بأن الموديلات التي اشترتها، تختلف تماماً عما اعتادت عليه. لكنها ترددت. فلا بد أنه يعرف أن عائلتها كانت تعاني من ضائقة مالية. لكن لا سبب يدعو لإظهار فقرها. وقبل أن تقول شيئاً، قال لها:

- أريد الحديث معك عن سالي. ظننت معها الليلة

- لا. لكنها مع أصدقاء. إنها امرأة ناضجة. ولا يمكنك إبقائها في برج عاجي. أنت شقيقها ولست سجانها.

أيتوقع منها أن تبقى معها ليل نهار وكأنها حارس؟

كلامها كان كمن يعض نمراً. كانت تتكلم بمنطق. لكنها أحست بالإثارة وهي تتساءل عما إذا كانت قادرة على دفعه لفقدان أعصابه ورفع صوته، لكنها لم تفلح. فقد ابتسم لها واعترف:

- لطالما أحست أنني والدها أكثر من أن أكون شقيقها. وهناك أوقات تحتاج فيه إلى سجان. معظم الرجال الذين تختار صداقتهم يفكرون بالمال حين ينظرون إليها.

لم تتوقع شيلا أن يثق بها ويبرز إليها بشيء، وهذا ما أجفلها.

- لكن سالي لا تملك المال. أليس كذلك؟

- لا.

- أنت تعني إذن أنهم يفكرون بمالك. لكنني واثقة أنك مخطيء لأنها جميلة جداً. كالدمية الجميلة

- نظرياً هذا صحيح. في الواقع إنها كل عائلتي. وأريد لها رجلاً لا يفتش عن وريثة. مثل آخر مرة.

كان صوته لا زال هادئاً. كان رجلاً ضخماً. وبالإمكان تصوره كشرصان، يصرخ ويهدر، يروح ويجيء فوق سطح مركبه. لكن شيلا فجأة، أصبحت تشك في أنه قد يضطر يوماً لرفع صوته ليخيف أياً كان.

منتديات ليلاس الثقافية

حين تزداد الخطوط على وجهه عمقاً، ويصبح فمه خطاً قاسياً مستقيماً، يمكنها أن تصدق بأن زوج سالي لم يمت في حادثة سيارة . . ولا بد أن يكون أحداً هو من حطمه.

كان فمها جافاً وهي تقول بخشونة:

ـ أنا واثقة أنها لن تكون كمثل آخر مرة . . لا بد أنها . .

أنهى لها الجملة حين صمتت:

ـ تعلمت درسها؟ أشك في هذا . . يبدو أن هذا الصنف هو من تبحث عنه. وآخر مرة كاد يقتلها، وخسرت الطفل الذي كانت تتوقعه، وكادت تفقد عقلها.

لم تكن شيلا قد سمعت بقصة الطفل المفقود من قبل، ولا تظن هذا وصل إلى الصحف . . وتابع ميل:

ـ تلك السنة سافرت خارج البلاد كثيراً. كنت أعرف أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام. لكنني أصلاً كنت ضد ذلك الزواج. وقررت البقاء بعيداً، لأعطيهما الفرصة للاستقرار وتسوية الخلافات . . وتوقعت منها أن تتصل بي في حال ساءت الأمور.

بدا وكأنه يعتبر نفسه مسؤولاً ولو بشكل جزئي عن تعاسة سالي. وأحست شيلا بأسف عميق على سالي، لكنها استطاعت كذلك أن تحس بالإشفاق على ميل في غضبه وألمه حين ذهب ليأتي بأخته بعد مقتل زوجها. وعرف مدى الجحيم الذي كانت تعيشه.

آخر شيء كانت تريده، هو النظر إلى الأمور من وجهة نظره هو. لكنها كانت مجبرة أن تقول:

ـ أنا آسفة.

لم يكن أي منهما يشرب، بل وضعا فنجانيهما على الطاولة. وسأل:

ـ أتعرفين سيرة حياتها؟

ـ قرأتها في الصحف . . لكنها ليست علاقات جادة . . أليس كذلك؟

قال ميل فجأة:

ـ ذلك الخطاب هذا الصباح . . أقالت لك ممن هو؟ إنه شاب مسالم إلى حد كاف. لكنها لا تتحمل مثل هذا النوع من الحياة.

وافقت شيلا على رأيه، لكن سالي قالت لها إنها تشتاق إلى غوبدو طوال الوقت . . وشيلا إلى جانب سالي. ولا تريد أن تقف مع ميل بأية طريقة، فحاولت إبعاد نفسها عن المشكلة.

ـ هذا ليس من شأني حقاً . . فلماذا تخبرني به؟

ـ لأن سالي معجبة بك . . ولكي تصغي إليها، لا بد أن تكوني مثال الفضيلة.

غفرت فاها.

ـ أنا؟ أنت تمزح!

ـ لكنك تحبينها؟

ـ طبعاً.

ـ إذن، راقبيها لأجلي . . حين تتكلم معك حاولي أن تجعليها تفكر بتعقل.

جعلها تبدو وكأن عمرها مئة عام . . أمن المفترض بها أن تنصح سالي كي لا تقع في حب رجال ليسوا أثرياء؟ قد تسخر منها سالي وتطلب منها أن تخرس!

قالت:

ـ آسفة لزواجها الفاشل . . لكن لا يمكن للمرء ضمان أن تكون بقية حياتها سهلة . . والرجال الذين نختارهم . . حسناً . . ألا يمكن أن تكون مخطئاً؟

قال بخشونة:

ـ أستطيع فهم الرجال. صحيح أنني لا أفهم النساء بسهولة، لكن الرجال، نعم.

إذا كان يجيد الحكم على الآخرين، فلماذا لم ير في العم جايسون أي قيمة تذكر . . ؟ وقالت بلهجة حادة:

ـ هل أنت من قارئي الأفكار؟

قال بأسلوب غريب وهو يرسم ابتسامة جذابة على شفتيه:

ـ بالطبع.

حتى وهي تشعر نحوه بكراهية شديدة لاحظت لمعان أسنانه البيضاء.

والتجاعيد حول عينيه . . وأكمل :

ـ لهذا أنا ثري بهذا القدر .

لم تتوقع منه أن يمازحها بشأن ثرائه، كانت تعرف أنه بدأ بنفس العمل الذي كان يعمل به والده . . وأحست بفضول يدفعها لتسأل :

ـ لكن، ألم تكن ثرياً من قبل؟

ـ أبداً .

هزت رأسها : أوه .

سألها :

ـ ماذا تعنين بهذا؟

ـ لا أستطيع تصورك إلا وأنت على خير ما يرام .

ـ لكنك لم تعرفيني في السابعة عشرة .

مهما حدقت به فلن تستطيع أن ترى ما الذي يختفي وراء هذا الوجه القوي، الخبير الذكي . . وهذه الكتلة الضخمة لجسد الرجل، قياساً بما كان عليه وهو صبي . . وسألت :

ـ لماذا السابعة عشرة؟

ـ كنت في السابعة عشرة حين قتل أبي وزوجته، أم سالي في حادث تحطم طائرة . كانا في رحلة لقضاء عطلة جماعية . . كنا نمتلك مصنعاً بحجم هذه الغرفة ولم نكن نربح المال الكثير . . أما سالي فقد كانت في الرابعة فقط، وأخذ الجميع يتحدث عن إدخالها إلى ميتم، ساعتها قررت أن أصبح ثرياً .

ـ إذن، فعلت هذا كله لأجل سالي؟

ابتسم :

ـ أظنني كنت سأنجح على أي حال . . العمل والقوة والمال، أحبها جميعاً . . لكنني بدأت أبكر مما يجب، لأتمكن من تأسيس بيت واستئجار من يرعى سالي .

في تلك الأيام، كان كل شيء رائعاً بالنسبة لشيلا، مع أنها كانت يتيمة أيضاً . . كان القصر جميلاً، والعم جايسون أحكم رجل في العالم، في وقت كان ميل ورايت يكافح ليصل إلى مثل هذا ولكي يحصل على بيوت ومصانع

أخرى يضيفها إلى أملاكه .

قالت بهدوء :

ـ حسناً . . أعدك أن أبذل جهدي لأبقي سالي سعيدة .

تطلعت عيناه النافذتان إلى عينيها مباشرة تأسرانهما :

ـ شكراً لك . . ولكن الوعد هكذا يبدو اتفاقاً من جانب واحد . . وأتمنى أن تكوني سعيدة هنا أيضاً .

لم يكن هناك عائق يقفُ أمام بقائها في هذا المنزل سعيدة خالية البال، فالرجل يحدثها الآن وكأنه صديق قديم، يقول لها أشياء هي واثقة أنه نادراً ما يناقشها مع أحد . . تمنت لو أنها معجبة به، لأمكنها حينئذ تقبل الصداقة التي يعرضها عليها . . لكنه القرصان الذي سلبها حقها، والرجل الذي جعل العم جايسون يبكي مكسور القلب والروح .

قالت وهي تقف :

ـ شكراً لك . . هل لي أن أذهب الآن . . أرجوك . . أمامي رسائل يجب أن أنهيها .

ـ أيجب أن ينم هذا . . الليلة؟

عندما قام واقفاً، خافت أن يقترب منها ويلامسها . كان يريدها أن تبقى معه هنا كي يستمرا في الحديث، بينما هي تتوق للهرب . ولا يمكنها أن تتحمل لمسته لها .

ردت :

ـ أجل . . يجب أن أنهيها . لقد بدأتها وأريدها أن تنتهي . .

كانت تسير نحو الباب، لكنها كانت مجبرة على النظر إليه لأنها تتحدث معه، ومن العجيب أنها لم تصطدم بشيء .

بدا صوته الثابت العميق متناقضاً مع رنة صوتها المتوترة، وهو يقول طبعاً . . عمتِ مساء إيلا .

لم يتحرك عن كرسيه، وعضت شفتها ترد :

ـ عمت مساء .

لقد سألتها سالي فيما إذا كان ممكناً أن تستخدم اسم الدلع، لكنها لم تستخدمه، بل قنعت باسم شيلا . . وميتش هو الوحيد الذي استخدمه بعد

موت العم جايسون . . ربما ستشعر بالإحباط إذا انتهى الأمر بميل ورايت إلى أن يستخدم اسم طفولتها . . وكيف يمكنها منعه إلا بإغضابه؟ والأمر لا يستحق كل هذا، مع أنها ستستهجن سماعه في كل مرة.

لم تنه رسائلها . . بل أخذت حماماً ساخناً، ثم استلقت في الفراش، تقرأ قليلاً قبل النوم. إلا أن مجيء سالي إلى البيت أيقظها. كان الجميع في السيارة لا زال يضج ويضحك . . وسمعت سالي وهي تصرخ مودعة ونعد بأن تتصل بشخص يوم الاثنين. وسرها أنها بقيت هنا. فلن تتمكن من البقاء لساعات تستمع إلى مثل هذه الأصوات، هذا عدا عن تناول العشاء في نادٍ ليلي. على الرغم من أنها لم تمض وقتاً ممتعاً هنا لأن ميل جعلها تتقصد عرقاً، فبعد أن عادت إلى غرفتها كان هناك بضع قطرات من العرق البارد على جبهتها. وأحست بالإرهاق وكأنها أنهت عملاً جسدياً شاقاً.

ونكورت في الفراش، تتحرك بتكاسل وتستمع إلى السيارة تبتعد بأصدقاء سالي . . هؤلاء الأصدقاء الذين سيأتون يوم الجمعة . . تلك الفتاة المدعوة فيونا، والتي على علاقة مع ميل . . هل ستبقى لتنام الليل هنا؟ كيف سيكون شكلها؟ وكيف يبدو كعاشق؟

يا لها من أسئلة سخيفة! ويا لها من أفكار . . ! أحست بثقل الغطاء الخفيف وهي تحاول رفع رأسها وكتفيها فوقه، تشهق لتتنفس بصعوبة، وتحرك رأسها بمنة ويسرى، كأنها تحاول الخلاص من شيء يكوبها من الداخل.

أي تفكير بميل ورايت يزعجها . . لقد اقتحم عليها حياتها وها هو يقتحم نومها . . وجلست تسوي الوسادة جيداً، مع ذلك وجدت صعوبة كبيرة في العودة إلى النوم.

في الصباح التالي لم تنزل لتناول الإفطار إلى أن سمعت هدير سيارته تبتعد. كان هناك رسالة لها وضعت بقرب الصحف، معنونة إلى القصر. لقد أصبح بريدها يصل إلى هنا الآن. كانت الرسالة من رجل كان رفيقاً للعم جايسون في الجيش، ولم يره منذ عشرين سنة . . وكان من الرائع أن تعرف مدى احترام الآخرين له.

دخلت السيدة هارتس بالقهوة وسألت:

ـ أهذا صديق آخر؟ . . احتفظي بها آنسة. ستكون عزاء لك فيما بعد . . والوقت مبكر لقراءتها الآن.

أعادت الرسالة إلى المغلف.

ـ سأفعل . . وأتمنى أن تناديني شيلا.

ـ حسن جداً.

أعطتها لائحة على ورقة قائلة:

ـ أتطلبين من الآنسة سالي مراجعتها؟ إنها ما ستقدمه ليلة الجمعة على المائدة.

ـ كنت أطهو الطعام بنفسي لعمي . . أنختار سالي الطعام بنفسها؟

ابتسمت السيدة هارتس:

ـ لم تعد يوماً لائحة طعام، ولا غيّرت واحدة، وأنا أتولى هذا منذ زمن طويل. بيني وبينك: لا نفع لها في المطبخ.

ـ هل أنت من رعيتها وهي صغيرة؟

ـ أجل . . كانت طفلة رائعة . . كنا نعيش في المنزل المجاور، كورب وأنا. وكانت أياماً مختلفة، أقول لك هذا، لكن أنعلمين . . لم يتغير أبداً.

ـ من لم يتغير . . كورب؟

ضحكت السيدة هارتس:

ـ لا . . كورب تغير كثيراً . . وأصبح جنائنياً من طراز أول، ويمكنه كتابة مجلدات عن الحدائق . . لكنني أتكلم عن السيد.

بدت فخورة وكأنها أم، لقد شدت عائلة هارتس رحالها نحو النجوم عندما اتجهت السيدة هارتس إلى الباب المجاور لتعتني بالفتاة البالغة من عمرها أربع سنوات بينما كان الصبي البالغ سبعة عشر سنة يذهب إلى المصنع الصغير ليبني ثروة . . وإذا لم يتغير ميل ورايت، فلا بد أنه كان صبياً غير عادي . . لكنه بالطبع تغير . . فالتصميم وقسوة القلب كانا موجودين منذ البداية . . لقد نمى قوته وسلطته إلى أن حكم امبراطورية . .

قالت السيدة هارتس، تتحدث عن ميل وتبتسم لشيلا:

ـ أحد ألطف الرجال الأحياء . . سمعت أنك ستبقين.

ـ طلبت سالي مني أن أكون مرافقتها لفترة.

ـ حسناً . . ستكونين بمأمن هنا .

تساءلت شيلا عما إذا كانت السيدة تعتقد بأن الحريق لم يكن مأساة لها، لأن الحياة كانت صعبة موحشة لشيلا في بلبون كاسل وهي الآن تعيش بفخامة . . فقالت بهدوء :

ـ لقد كنا سعيدين جداً . . كلانا .

وضعت العجوز يدها على كتف شيلا بتعاطف شديد :

ـ أنا واثقة من هذا عزيزتي . . ربما عليك أن تلقي نظرة على لائحة الطعام هذه، لتخبريني عن رأيك فيها، بما أنك تعرفين كثيراً عن المطبخ .

ـ شكراً لك، سأحب هذا .

الطبق الأساسي كان البط المطبوخ، كانت تعرف طريقة طهوه، وناقشتا لفترة مطولة كيف أن البط يجب نقعه في الخل الأبيض والصلصة، وكم هي كمية الثوم، وما نوع الأعشاب والمتبلات التي توضع فيه .

لاحظت أن السيدة هارتس لا زالت تنادي سالي «سالي» لكن ميل أصبح اسمه «السيد» وهذا ينافي كثيراً إدعائها أنه لم يتغير، وتساءلت كم كان عمره حين توقف عن أن يكون ميل فقط . . عشرون . . خمسة وعشرون؟

قالت :

ـ أعتقد أنني غير قادرة على إعداد شيء من الطعام . . صحيح؟ هناك قالب حلوى صيفي من الليمون كنت أصنّعه، وربما يتناسب مع الحلوى التي ستقدم .

ردت السيدة بلهفة :

ـ بالطبع . . تعالي إلى المطبخ في أي وقت .

نظرت إلى شيلا باستحسان، مقررة أنها فتاة متعقلة، وأنها النوع المناسب من الأصدقاء الذي تحتاجه سالي .

ضحكت سالي حين أخبرتها شيلا :

ـ طالما كان سخيفاً أن تأتي إليّ بلائحة الطعام . . أعني أنني أعرف أنها لا بأس بها، لأنها طباخة ماهرة .

ـ أما أنت فلا . . على ما أعتقد؟

ردت سالي بخفة :

ـ الفاصوليا المعلبة والخبز المحمص، فقط . في الواقع أنا ماهرة في تحميص الخبز .

وضعت العسل على الخبز المحمص، وقضمته بأسنانها الصغيرة، الجميلة كاللؤلؤ . . وقالت شيلا :

ـ نزلت ليلة أمس لأرد على الهاتف . . فطلب شقيقك أن يحدثني، وتحدث عنك . إنه قلق بشأن علاقتك بغويدو . . ويريدني أن أطلب منك أن تهدأي .

ـ حسناً . . طلبت مني .

لم يكن في استطاعتها فعل شيء أكثر، وقالت سالي :

ـ لا تقلقي، فهذه العلاقة ليست مثل غيرها . فهو يجعلني أضحك كما لم يفعل سواه . . إنه مجنون، لكن، ذكي .

تمتمت شيلا :

ـ سيحتاج إلى الذكاء . . وأظن أن أخاك لديه حكم مسبق على الرجال المجانين، خاصة بالنسبة لك .

ردت سالي بهزة رأس :

ـ أجل . . ميل يفضل الرجال المتعقلين . . ونساءه عادة متعقلات .

ـ كلهن؟

ـ أوه . . لم يكن هناك كثيرات إلى هذا الحد . . فالعمل يأتي في القمة، وهناك واحدة فقط، لوقت واحد . لكن، كلهن سدين من الطراز نفسه .

قالت :

ـ هذا ما قاله عنك .

وتمنت لو أنها لم تقل شيئاً، بعد أن لاحظت اصطباغ وجه سالي باللون الأبيض . . وزمت فمها بعناد :

ـ هذه المرة مختلفة . . إنه في تفكيري طوال الوقت . . ولا أستطيع التوقف عن التفكير به، ولا بد أن هذا يعني شيئاً . . أليس كذلك؟

ردت شيلا بقلق :

ـ كان لدي حالة مشابهة مرة . هناك رجل أثّر عليّ، وكان مميزاً، وفريداً من نوعه . . لكن هذا لا يعني أنني كنت أحبه، لأنني لا أطيق رؤيته .

ظنتها سالي تمزح، وسألت:

ـ هل أعرفه؟

ـ لا.

وهذا صحيح. فشقيق سالي المحبوب، والقرصان، شخصان مختلفان. وإذا وصفت شيلا ميل ورايت كما تراه، وكما تشعر نحوه، فسالي لن تتعرف على إشارة واحدة ترتبط به.

مساء يوم الجمعة، في تمام السادسة، كانت سالي وشيلا تزوران صديقين متزوجين حديثاً من أصدقاء سالي.. كانت شقتهما جذابة لكنها بعيدة عشرين ميلاً عن المنزل الأبيض وسيصل الضيوف في حوالي الساعة السابعة والنصف، وبدأت شيلا تقلق.

وبدت سالي مذهولة بالشقة، وكأنها تحسد العروسين بشكل واضح. إذ قالت:

ـ أنتما محظوظان.. الشقة رائعة.. أوه.. حسناً، أعتقد أن علينا الذهاب.

جلست صامتة تنظر من نافذة السيارة معظم رحلة العودة، حتى وصلنا إلى المنزل فقالت:

ـ لو صعدنا من المدخل الجانبي، لوصلنا إلى غرفتينا دون الالتقاء بفيونا.

فيونا أيمز، صديقة ميل، كانت ستبقى لنهاية الأسبوع، ويُتوقع وصولها بعد الظهر، ومع أن سالي لم تقل شيئاً عنها، فقد لاحظت شيلا أنها تتجنب فيونا، لكنها لم تطرح أسئلة، ولم تتكلم وهي تتبعها إلى غرفتيهما. وقالت سالي:

ـ سأجيء إلى غرفتك بعد أن أغيّر ملابسي، ثم ننزل معاً.

خلعت شيلا ملابس النهار، ثم وضعت زينة المساء، وارتدت الفستان الرمادي الأنيق. مشطت شعرها إلى أن لمعت ألوانه الحمراء القاتمة في موجات سوداء.. وهي تجلس في الانتظار، بدت لها الفتاة في المرآة غريبة تقريباً، رابطة الجأش هادئة، باردة كالثلج دون أي دفء فيها. قالت حين دخلت سالي:

ـ حسناً.. ما رأيك بي؟

ـ رائعة.. والآن سننزل لنرحب بفيونا.

ميل ورايت، وفيونا أيمز، كانا وحدهما في غرفة الاستقبال ووقف فور دخول الفتاتين، ببذلة سوداء، مفصلة بإتقان، بينما الفتاة الجالسة إلى جانبه على الصوفا الخضراء، ابتسمت بإشراق. كانت ترتدي فستاناً أسود بكتف واحد عاري، يلمع تحت الأضواء.. وقالت مرحبة:

ـ سالي! ما أروع أن أراك.. و..

لم يبد عليها الرضى لرؤية شيلا.. وقالت سالي:

ـ شيلا سوليفان.. فيونا أيمز.

مدت فيونا يدها، فاضطرت شيلا للتقدم عبر الغرفة لتصافحها، لكن ما إن لامستها شيلا حتى سحبت أصابعها.

لا بد أنها سمعت بما جرى لبليون كاسل، لكن من الواضح أن أحداً لم يقل لها إن شيلا هنا، وحين أعلنت سالي:

ـ شيلا تعيش معنا، وهي رفيقتي.

تبخر كل أثر للابتسام. وبدت فيونا كأنها تنظر إلى مخلوق قادم من الفضاء، وسألت:

ـ رفيقتك؟ أعرف أن العجائز فقط لهن مرافقات مقيمات.. كم أن هذا غير عادي! وإلى أي نوع من الكفاءات تحتاج المرافقة؟

رد ميل عليها:

ـ مهما كانت، فشيلا تمتلكها.

صاحت فيونا تتظاهر بالدهشة:

ـ صحيح..؟ من قلت إنهما كانا يزوران؟

كتمت شيلا سخطها.. وسألهما ميل عما تودان أن تشربا، وأخذت سالي تذكر الأصدقاء ونصف شقتهما. جلست فيونا تتظاهر بالابتسام، بينما كانت تغلي سخطاً في سرها.

أمر لا يصدق، لكنها بدت نفار من شيلا.. ولو كانت أقل عدائية لوجدت شيلا طريقة لتؤكد لها أن مركزها في المنزل هو وضع محايد مثل وضع السيدة هارتس بالنسبة لميل. لكن، والأمر كما هو، ومع تقدم

الأمسية. أخذ ميلها لطمأنة بال فيونا يخف ويخف.

كانت حفلة العشاء مرضية جداً. شيلا تعرف الزوجين لويس وفيكتوريا مارش، سمسار الأملاك وزوجته.. والرجلين الآخرين بيتر هانسون، رئيس قسم العلاقات العامة في المصنع، وفرانسيس وست، المحامي، كلاهما لطيف محبب.. الحديث كان مسلياً، وتبين لها أن ميل ورايت متحدث مرح، وما كانت تعرف سابقاً أنه يتحلى بروح المرح.. وهذا ما أثر على الباقين، فأطلق روحهم المرحة أيضاً، فانتعش الحديث.. ولم تقل شيلا الكثير، لكنها تمتعت بالإصغاء، ولكانت تمتعت أكثر لو لم تستمر فيونا بإيجاد الوسائل التي تذكرها بأنها دخيلة.

معظم الأوقات، كانت الوخزات خفية خبيثة، وكان بالإمكان أن تمر دون أن ينتبه لها أحد ما عدا شيلا.. لكن بعد فترة من عدم الاكتراث، أخذت فيونا تميل للسخرية أكثر.

كان الطعام لذيذاً، بالطبع، وقالت سالي إن شيلا صنعت قالب الحلوى بالليمون. وأخذ الجميع يتمتم استحساناً، بينما تشدقت فيونا:

- أوه.. وهل تطبخين أيضاً؟ أوه.. سنكونين كنزاً في المنزل.. في الطابق الأعلى والطابق الأسفل.

ساد صمت مطبق، ثم ردت شيلا:

- أرجو هذا.

سألت فيونا:

- وهل أنت مدربة على شيء؟ أعني.. لم نكوني تتوقعين أن تُعرض عليك وظيفة مرافقة للعزيزة سالي.. هل عملت قبل الآن شيئاً، كمهنة أو تجارة؟ أو أي شيء.

- لا.. في الواقع.. كنت أتوقع أن أكون مالكة للأملاك.. لكن العائلة أفلست.. بعد ذلك أصبحت الطباخة، والمنظفة وعاملة الحدائق.

قالت فيونا ساخرة:

- إلى أن احترق ذلك الركام العائلي؟

- أجل.

قالت بحلاوة:

- أرجو أن يكون مؤمناً جيداً.

تدخل ميل:

- أنا واثق من حسن مشاعرك.

وتابع يتحدث عن المراكب ليغير مجرى الحديث.

غادر الضيوف حوالي منتصف الليل، وتمنت سالي وشيلا ليلة سعيدة لميل وفيونا، وصعدنا إلى غرفتيهما.. كانت سالي تتحدث عن قهوة الصباح، وشيلا نصف مصغية، حين وصلنا إلى باب غرفة شيلا، وصاحت سالي ساخطة:

- اللعنة.. تركت حقيبة يدي في الأسفل!

- أتريدينها؟

- أجل.

ابتسمت:

- سأحضرها لك.. على أي حال، أقبض أجري لأفعل هذا.

ابتسمت سالي:

- شكراً لك.. إنها تحت الكرسي التي كنت أجلس عليها في غرفة الاستقبال.

كان ميل وفيونا لا زالا في الردهة، حين استدارت شيلا عند زاوية الرواق، ورأتهما معاً. وكانت فيونا تضحك فبدت ضحكتها غريبة.

وارتبكت شيلا.. لم يبدُ لها الوقت مناسباً للنزول إلى الأسفل. وهي تتراجع، سمعت فيونا تقول:

- الآن وقد سمعت كل شيء، عليّ أن أراقب ما أقوله كي لا أجرح مشاعرها؟

- يكفيها جرحها، لم يمض أسبوعين بعد على احتراق منزلها وموت عمها.. وإذا لم يكن لديك الحساسية لتقدير هذا فابقي فمك مقفلاً.. كنت تهاجمينها باستمرار الليلة.. ولن أسمح بهذا.

- إنها مقيمة هنا.. أليس كذلك؟

- أجل.

ردت فيونا بحدة قائلة:

ـ حسناً.. ربما ليس هناك مكان يكفي لكلينا.. وربما تريدني أن أرحل؟

ـ افعلي ما شئت.

سمعت شيلا وقع أقدام ثقيلة تقطع الردهة، ثم صوت صفق باب. وعرفت أنه ميل.. وتراجعت بسرعة عبر الممر المغطى بالسجاد نحو غرفتها.

لم تكن تريد شفقة ميل ورايت.. لكنها أحست بارتياح مرتبك لعلمها أنها بوجودها هنا، أرادت أم لا، ستحظى بحمايته..

قالت سالي:

ـ عدت بسرعة.

هزت شيلا كتفيها، وأظهرت يديها الفارغتين:

ـ آسفة، لكن عليك أن تحضريها بنفسك.. فقد كدت أدخل على شجار في الأسفل. وكانا لا يزالان في الردهة.

ـ بين ميل وفيونا؟ ما هو سبب الشجار؟ أكان بسببك؟

خلعت شيلا حذاءها، وجلست أمام طاولة الزينة. وسألت:

ـ أتحاولين التسبب بالخلاف بينهما؟ أهذا هو دوري هنا؟ أنت لا تحبين فيونا.. صحيح؟

أجفلت سالي للاتهام:

ـ لا.. أوه! لا..! ليس لدي شيء ضدها.. ولا دخل لي بها. أريدك أن تبقي لأنني أحب وجودك هنا.. أنا أحبك كثيراً، وآسفة لسوء أخلاقها معك الليلة.. ولا أظنه لطيفاً أن يغضب ميل منها.. وأعتقد أنه كان غاضباً جداً؟

ـ أجل.

ـ تستحق هذا.. كان يمكن أن أقول لها أشياء بنفسي، لكنها لن تبقى هنا كثيراً.. وبإمكاننا الابتعاد عن طريقها.

كان صوتها متوسلاً، فقد أقلقها أن تحس شيلا بالإهانة، وابتسمت شيلا.

ـ حسن جداً، لكنني لن أنزل إلى تحت ثانية الليلة.

ـ أوه.. سأحضر حقيبتي بنفسي.. إنني أحمل صورته معي.. ولا أنام

إلا وهي تحت وسادتي.. صحيح أنها مجرد صورة.. لكنها أفضل من لا شيء.

قالت شيلا لها:

ـ أحلام سعيدة.

ابتسمت سالي، ثم عضت شفتيها.

ـ معظم الليالي، أحلامي سعيدة.

يمكن أن تكون الأحلام أحياناً حلوة سعيدة.. لكنها في ليال أخرى كانت مخيفة وموحشة.. ولم يكن هناك كثير من الفرح في هذا المنزل الليلة.. مع أن السيدة هارتس حضرت لفيونا غرفة قرب غرفة ميل، إلا أن فيونا كانت تهدد بترك المنزل فوراً، وهو لم يفعل شيئاً لمنعها.

لكنها لن تغادر.. على الأرجح لحقت به، تفتح ذلك الباب الذي أغلقه، بعد بضعة كلمات، سيبدءان بالابتسام لبعضهما.. فهما على أي حال حبيبان، والوقت متأخر.

عادت شيلا إلى غرفتها الفارغة، ولا شيء غريب في هذا، لطالما كانت غرفتها فارغة، لكنها الليلة تنهدت وهي تمسح الماكياج عن وجهها، وتدخل الفراش.. كانت متعبة، وستنام بسرعة.. أخذت تردد لنفسها: أنفاس عميقة.. أنفاس بطيئة.. تجعل التفكير صافياً.. لكن، وهي تتقلب، وتستدير، تحاول أن تجد لها مكاناً بارداً ناعماً على الوسادة.. لم تستطع التوقف عن التساؤل عما يفعله ميل الآن مع فيونا.

* * *

www.liilas.com

{doode}

٥ ـ هربت منه

كانت مائدة الإفطار معدة لاثنين عندما نزلت شيلا في الصباح التالي. وقد يعني هذا أن ميل وفيونا، تناولا الإفطار، أو أنهما سيتناولانه في الفراش. لكن، لم يكن هناك أثر لأحد، مع أن الساعة تكاد تقارب التاسعة والنصف.. وجلست لتأخذ الرسالة الوحيدة على الطاولة، والمعنونة باسمها وبدا عليها الجد.

كانت رسالة من «ستيفنز وغاريس، للتخمين والبيع بالمزاد» تقول لها إن أخاها السيد ميتشل سوليڤان، اتصل بهما طالباً تخمين بقايا بلبون كاسل.. فهل تسمح، بكل لطف، أن تكتب أو تتصل لتقديم المعلومات الكافية، وتحديد الوقت المناسب لكي يتمكنا من معاينة المكان؟

فكرت في أسرع وقت ممكن.. ما إن تشرب فنجان القهوة ستطلب الرقم، كانت على وشك الوقوف حين انفتح الباب ودخلت سالي، تحمل وعاء قهوة، والابتسامة تنتشر على وجهها.

ـ هاي.. احزري ما الذي حصل؟ لقد غادرت فيونا عند طلوع الفجر.

ـ ماذا؟

صبت سالي القهوة في الفنجان الموضوع أمام شيلا، ثم صبت لنفسها فنجاناً آخر وهي تقول:

ـ هذا ما حصل.. وشربت ثلاثة أكواب من القهوة السوداء المرّة وهي في مزاج سيء جداً. حتى أنها لم تترك رسالة.. السيدة هارتس قالت لي ذلك لتوها.

ـ أيعلم شقيقك بهذا؟

ـ أجل.

تمتمت شيلا: يا إلهي!

ابتسمت سالي مجدداً.. لكن التسبب بالخلاف ليس أمراً مرضياً.. وإذا كانت شيلا مصممة على البقاء، فعليها أن تبتعد عن طريق فيونا، كما سنحاول الابتعاد عن طريق ميل.. شربت قليلاً من القهوة الساخنة جداً.. ومالت سالي نحو الرسالة وسألت:

ـ ما شأن هذه الرسالة؟

ـ اقرأيها. كنت على وشك الاتصال بهم.. أتظنين أنه سيوجد أحد في مكتبهم؟

ردت فتاة على الاتصال، وشرحت لها شيلا من هي.. فأوصلتها الفتاة برجل يدعى إدوين روبنسون. كان يعرف ميتش شخصياً، وبدا متلهفاً ليساعدها واتفقا فعلاً على البدء في المعاينة اليوم. فيما إذا كانت الآنسة سوليڤان قادرة على أن تتواجد في القصر بعد نصف ساعة. لكنها لم تكن راغبة في العودة إلى القصر، فقالت:

ـ أظن كل ما تبقى موجوداً في الاسطبل.. وأظنه موصداً، والمفتاح ليس لدي.

قال إن المفتاح معه، فسألت لماذا إذن يجب أن تذهب؟ لكنه كرر طلبه أن تحضر بعد نصف ساعة، ووافقت مرغمة.

في غرفة الطعام كانت سالي لا تزال تقرأ صحيفة الصباح، وقالت لها شيلا:

ـ سيبدأون في تسجيل قائمة الموجودات بعد نصف ساعة، ويريدون تواجدي هناك.

ـ إنهم سريعون. لن تحتاجي سيارتي، أليس كذلك؟ أعني أنك ستذهبين بسيارتك الميني؟

ـ طبعاً.

بإمكانها أن تصل إلى هناك سيراً خلال نصف ساعة، عبر السلم المنحوت في الصخور، ثم تستدير حول الخليج، صعوداً على الطريق الموصلة إلى بلبون كاسل.. لكنها لم تكن ترغب في تسلق الصخور

وحدها . . ولا تريد كذلك أن تذهب إلى القصر وحدها . فسألت :

ـ أيمكن أن تأتي معي ؟

بدت سالي خجولة :

ـ وعدت جينا . . سأتناول قهوة الصباح عندها اليوم ، تعرفين هذا .

وقهوة الصباح أكثر مرحاً بالفعل . . بينما الذهاب إلى القصر رحلة كئيبة . . وأكملت سالي :

ـ أعني . . لا شيء أفعله هناك . . أليس كذلك ؟

كانت شيلا تود أن يذهب أحد معها . . شخص ليس غريباً عنها . لكن ، يبدو أن هذا أمر يجب أن تقوم به وحدها ، وقالت :

ـ لا بأس . . لن أبقى هناك كثيراً . . سأذهب وأرى ما يجري .

ـ إذن بإمكانك المجيء لتناول القهوة . . تعرفين العنوان .

البلدة تبعد خمسة أميال ، وقالت شيلا :

ـ على الأرجح سأفعل هذا .

لكنها كانت تعلم أنها لن تفعل ، أحست بالسقم وهي تستدير إلى الطريق المؤدية للقصر . . تقدمت ببطء شديد ، وتوقفت أكثر من مرة ، تنظر إلى النوافذ وإلى آثار النار من حولها . . كل الزجاج تحطم ، كان الزجاج في بعض النوافذ ملوناً ، كما كانت هناك رسومات وتصاميم فوقها ، ولا يوجد الآن سوى الفراغ .

الهدم الكامل كان الحل المحتمل ، والأثاث واللوحات التي أنقذت يجب أن تباع . قادت شيلا السيارة حول القصر إلى الأمام ، لتجد أن المروج التي كانت متبسطة ، أصبحت منكمشة وكأنها ما زالت مذعورة منذ ليلة الحريق . . سيارة أخرى كانت متوقفة إلى جانب مبنى العربات والاسطبل . . ترجلت من سيارتها ، لتتقدم إليها .

كانت أبواب الاسطبل مفتوحة ، والأثاث مرصوص حيث كانت العربات تقف . لكن منذ أن وعت شيلا ، كان هذا مرآباً للسيارات ويبدو الآن كأنه محل بيع خردة عتيقة . . لمحت من خلال النظرة الأولى المقعد الجلدي المروحي الظهر الذي كان العم جابسون يجلس فيه ، وأمضى آخر ليلة من عمره فيه .

خرج رجل من بين الأثاث ، كان شاباً أصلعاً ، يضع النظارات .

ـ آنسة سوليفان ، أنا أدوين روبنسون .

تصافحا ، وكان معه امرأة تحمل لوح كتابة ورقي ، قالت :

ـ صباح الخير

لم يبتسم أحد منهم . . وعرفت شيلا أنهما سيرتاحان أكثر ، ويتمكنان من المضي بعملهما أفضل من دونها ، لكن أولاً ، هناك كلام عن لائحة الموجودات ، وما ترغب في أن تستبقيه ، وما يمكن بيعه بالمزاد العلني ، وهذا ما يحتوه خلال جولتهم في المكان .

مبنى العربات بدا محصوراً غير صالح كمخزن ، ودخل تيار هوائي جعل شيلا ترتجف . . لكن بالطبع كان هنا أفضل بكثير من ترك الأغراض في القصر ، ولا بد أن ميتش نظم عملية النقل في الأيام التي لم تكن فيها قادرة على النظر إلى المكان .

تمنت لو أن ميتش معها الآن ، أحست بقلق عميق ، مع أنها حاولت أن تبدو طبيعية . . وقالت :

ـ توقعت أن أرى كل شيء تالفاً وأسوداً . .

لكنها سرعان ما أدركت أن ما تراه ليس سوى جزء بسيط مما كان القصر يحويه :

ـ ألا يزال هناك بقية في الداخل ؟

رد أدوين روبنسون :

ـ يوجد البعض في الاسطبل ، لكن هذا هو فقط ما يمكن إصلاحه وبيعه . . وما تبقى فهو في حالة سيئة جداً .

ـ سأذهب لألقي نظرة .

كانت الخسائر الكبيرة في الاسطبل . هنا بعض القطع التي لا يمكن إصلاحها أبداً ، وما كان عليها أن تطيل الوقوف . لكنها ذهلت من هول ما رأته . خطت فوق كوم من الأخشاب المحروقة ، تلتقط شيئاً من هنا وشيئاً من هناك كان محتفظاً بشكله القديم .

عثرت على جزء من خزانة الأدراج من طراز لويس الخامس عشر التي كانت في غرفتها ، وقد ذكرها هذا بما كان سيحدث لها تلك الليلة لو لم يأت

عمها ليحذرها من النار. هروبهما دون وعي أنقذ حياتها، ولو لم ينقذ حياته، ومن النظر إلى كل هذا، انتقلت إلى النظر إلى المنزل نفسه.

خرجت من الأسطبل. لتسير فوق الممر المرصوف بالحصى باتجاه الباب الأمامي للقصر. كانت تشق طريقها بصعوبة تحت الألواح المتعارضة المثبتة على المدخل والتي تحمل الإنذار المكتوب باللون القرمزي «خطر.. ابتعد». شاهدتها المرأة التي تساعد المخمن وقالت له:

ـ لقد دخلت إلى هناك.. أرجو أن تعي ما تفعل.

المكان الذي كان الردهة الأساسية، كان مظلماً.. على الرغم من أنها كانت قادرة على النظر مباشرة إلى السماء، إلا أن كل شيء في الأسفل أسود فاحم.. السلم المصنوع من خشب السنديان، مع درابزينه المحفور، كان متفحماً.. عواميد الخشب، والخشب المحطم والمتناثر في الطوابق العليا، كانت تجعل التحرك أمراً متعذراً للغاية.

مع ذلك، شقت طريقها ببطء وحذر.. وأخذت تنظر إلى كل غرفة في الطابق الأرضي.. بعضها كان مدمراً والبعض الآخر كان سالماً بعض الشيء. ومعظمها فارغ، وسارت تسترجع ذكرياتها حتى وصلت إلى ما كان يوماً ما المطبخ.

كل شيء هنا يبدو مدمّراً، وأسوداً. كان هناك سواد كثيف حتى أن عربة التقديم الحمراء والتي كانت فيما مضى تجر عليها عشائهما أو إفطارهما، كانت محطمة، رغم أن الدهان الكرزي اللماع كان لا يزال ظاهراً.

أخرجت منديلاً ورقياً من جيبها وأخذت تمسح العربة بلطف حين سمعت من ينادي:

ـ إيلا أين أنت.

عادت إلى أيام الطفولة للحظات وأجابت:

ـ إنني هنا في المطبخ.

مع ذلك كانت تعرف أن المتكلم كان ميل ورايت، وعضت شفتها لكن متأخرة، ثم استدارت بذعر تبحث عن طريق للهرب. لكن الباب الموصل إلى الخارج كان موصداً، والطريق الذي دخلت منه سيقودها مباشرة إليه.. وسارعت تدخل أول فتحة أمامها فوق سلم حجري، بعد أن رمت الصينية من

يدها لتصدر صوتاً عالياً. كان هذا أحد الأبراج، التي توصل إلى السطح. جدرانه ودرجاته لا زالت لزجة بمادة تشبه القطران.. لكنه كان سليماً.

سمعت شيلا ميل يصرخ ثانية:

ـ انزلي.. البرج ليس آمناً!

ردت صارخة:

ـ اذهب من هنا!

ثم سمعته يلحق بها، فتابعت الصعود.. كان هناك بابان يفترض أن ينفتحا على ممرين، أصبحا الآن مفتوحين على الفراغ.. وبقيت ملتصقة بالجدار، تصعد، خطوة خطوة.. كانت مقتنعة أن ميل سيتوقف.. إنه سلم ضيق لوليي، وهو رجل ضخم، وثقيل الجسم. قد يقف ويرفع صوته عالياً ورائها، لكنه لن يلحق بها حتى السطح.

حين وصلت إلى السطح، وضعت يدها على فمها لتمنع نفسها من الصراخ.. لم يعد هناك شيء متبقي من الفناء الأوسط في البيت.. ولم تجرؤ على النظر إلى الأسفل.. موجات من مشاعر الغثيان أخذت تهاجمها الآن.. لكن حين سمعت وقع خطواته وراءها، خرجت إلى سور البرج على طول حافة الفتحات الحجرية التي تحد الجدار.

بضع خطوات فقط.. وبدا لها صلباً بما يكفي، لكنه قد يكون متصدعاً وهو على وشك الانهيار.. تمسكت بحواجز المتاريس القديمة ونظرت عبر فتحة منها إلى الشعر الأسود للرجل الذي ظهر عند الحافة، وكان له الجرأة الكافية ليصيح:

ـ لأجل الله يا فتاة.. ماذا تظنين نفسك فاعلة؟

صاحت ترد عليه:

ـ أتفرج.. أتفرج فقط.

كان يخرج إلى الخارج قائلاً:

ـ حسناً.. لقد تفرجت على كل شيء الآن.

فانكمشت إلى الوراء، صائحة:

ـ لا تفعل هذا! قد لا يحمل ثقلك!

ـ أعي هذا لكنني لن أتركك هنا.

ظنها جنت بعد أن نظرت إلى ما تحتها من منظر . . في وقت كان كل ما تفعله هو الهروب منه . . والآن لم تعد تستطيع الهرب . . وعليها أن تنزل . . فقالت :

ـ حسن جداً . . أنا قادمة .

انتظرها ميل ، متنحياً لها جانباً ليتركها تنزل أولاً ، ويلحق بها ليمسك بها إذا وقعت ، أو إذا ، وهذا ما كان يفكر به ، أقدمت على القفز منتحرة . . من ناحية أخرى ، لو أنه انزلق لانتهيا معاً كومة في الأسفل . . فقالت تحذره :

ـ انتبه للسلم ، درجاته منزلقة .

ـ لاحظت هذا وأنا صاعد .

عندما وصلت المطبخ ، كانت قد هدأت ، وعادت تسيطر على أعصابها بما يكفي لتسأله ببرود :

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ أنت . . بالطبع .

نظر إلى راحتيه ، قذرتين كراحتيها ، من تحسس الجدار الفاحم ومسحهما في سترته . . ستحتاج السترة قطعاً إلى تنظيف .

ـ أخبرتني سالي إلى أين جئت . . ما كان يجب أن تأتي إلى هنا وحدك .

من الغريب أن يفهم ميل مدى ما تشعر به من كرب ، بينما لم تدرك سالي شيئاً . . لكنه شاهد سابقاً كيف خرجت من مفرق القصر .

قالت :

ـ كنت فقط أسير في الطابق الأرضي . . ولم أكن أخطط لأرمي نفسي من فوق فتحات الجدار ، أو أي شيء كهذا . . لقد هربت حين سمعتك تنادي .

لو لم يصل ، ربما كانت ستذرف بضع دموع ، ثم تخرج . . وسألها :

ـ لماذا هربت؟

ـ لم أرغب في رؤيتك هنا ، لأنني أعتقد أنك أنت الذي قتلته!

ـ ماذا فعلت؟

بدا وكأنه لا يصدق ما يسمع . . فأدارت رأسها تنظر حولها :

ـ عمي . . هذا ما سبب أزمته القلبية الثانية . . لكنك أنت سببت الأولى . . تلك التي حصلت له بعد أن استولت على المؤسسة .

وهي تصبغ هذا في كلمات ، بدا لها وكأنه اتهاماً وحشياً . . مع أنها فكرت به من قبل مئات المرات . . مع ذلك رد ميل بصوت هادىء لطيف :

ـ أتعتقدين أن هذا ما كان سيحدث فيما لو أنني لم أستحوذ على المؤسسة؟ أتظنين أن من الأسهل عليه تحمل الإفلاس؟

نظرت شيلا إلى الصينية المرمية تحت قدميها . . واسترجعت الأحداث التي أوصلتها إلى هنا ، تتألم حزناً على موته بين أطلال منزلهما . . ميل لا يمكن لومه أكثر من لوم الصاعقة ، ولا أكثر من الطلبات التي لم يستطع العم الوفاء بها ، ولا الضغط العصبي على العم وهو يركض لإنقاذها . . وعليها أن تعترف بهذا على الأقل لنفسها ، ثم له :

ـ لا . . بالطبع ليست أسهل . . وكان هذا سيرميه أيضاً ، فلن يرغب في الحياة بعد رؤية ما حصل .

لم يلمسها لكنه قرّب يده من ذراعها : تعالي .

توقفت لتلتقط الصينية قائلة :

ـ لقد تناولنا آخر عشاء لنا على هذه . . اشتريتها منذ بضعة أشهر لأنها جذابة ورخيصة .

أخذها من يدها وأعادها إلى سطح المرية التي كانت جزءاً منها :

ـ دعيها . . وتمسكي بالذكريات الطيبة .

كان هناك الكثير من الذكريات الطيبة . . وتجمعت في رأسها . لكن مع هذه الذكريات جاءت الوحدة . . فقالت :

ـ كان دائماً طيباً معي . . أثقل حياتي في تلك الليلة ، لأنني لم أكن أعرف بأمر الحريق . . وما كنت سأخرج حية لو لم يأتي لتنبيهي .

وبدأت ترتجف ، فلف ميل ذراعه على كتفيها . . وبطريقة ما لم يعد ذلك العدو . . كانت تحس بقوته تندفع نحوها . . ووجهها كان مضغوطاً على قميصه القطني الناعم ، ووجهها يقشعر من ملامسة قماش سترته . . تنفست رائحة الرجل النظيف ، وكان هذا أمراً رائعاً بعد رائحة الهواء الفاسدة .

ضمها إليه دون أن يتكلم إلى أن خرج بها من المطبخ ، ثم عبر الردهة ، حيث شاهدت لوحاً واحداً باقياً عبر الباب الآن .

لا بد أنه انتزع اللوح الآخر ليتمكن من الدخول . وكان أدوين روبنسون

والمرأة التي معه يقفان في منتصف المرجة، يبدو عليهما معاً الارتباك..
وصاحت المرأة:

ـ ماذا كنت تفعلين فوق؟

أدركت شيلا أنهما شاهداها على السطح، وشعرها يتطاير في الهواء..
وقالت:

ـ كنت أتفرج فقط.. وأظنني رأيت كل ما أريد أن أراه.. وأظنني سأتركما الآن.

بدا صوتها ثابتاً، لكنها لم تكن واثقة تماماً فيما إذا كانت قادرة على قيادة سيارتها، كانت على وشك طلب الانتقال في سيارة ميل حين قال مقترحاً:

ـ أترغبين أن نعود سيراً..؟ عبر الشاطىء؟ يمكننا أن نستعيد سيارتينا فيما بعد.

بعد تردد لم يدم طويلاً قالت:

ـ سأحب هذا.

هكذا سارا معاً مبتعدين عن القصر، نحو الأشجار والممر المتجه إلى الشاطىء.

مرّا بأيكة من الأشجار الملتفة حيث كان العم جايسون واقفاً والدموع في عينيه، بعد لقاءه مع ميل ورايت، يوم لم يعد له مكان في الشركة الجديدة. لكن، إذا كانت مؤسسة العائلة على شفير الإفلاس، فالتغييرات التي عصفت فيها كانت ضرورية.. وستبقى دائماً تفتقد عمها، ولن يخف حبها له عما هو الآن.. لكن المرارة كانت تتلاشى رويداً رويداً.. لا يمكنها الاستمرار في كراهية رجل رحب بها في منزله، وجاء يبحث عنها لأنه يعرف أنها ستشعر بالألم والحزن والوحدة.

ملأت رائحة البحر رئتيها. مذاق الملح الرائع كان منعشاً يعيد لها حيويتها في الوقت الذي كانت فيه تتقدم على ميل بعض الخطوات.. لم يقولا شيء.. لكنها كانت تسمع وقع خطواته القوية ورائها. كان غريباً ذلك الإحساس بالأمان الذي منحه لها.

كانت تعرف جيداً الممر المتعرج عبر الصخور.. لطالما سلكت هذا الطريق باتجاه الشاطىء، عادة لوحدها، ودائماً مع القلق في أعماقها.. إلى

متى كان يمكنها أن تبقى القصر واقفاً على قدميه.. الآن، ذهب القصر، ولا شيء يمكنه أن يجرح إحساس العم جايسون ثانية. والرجل الذي يسير معها.. قوي ولطيف.

كانت في البدء قد عرفت هذا عن ميل بشكل تدريجي، عرفت أنه لطيف للغاية.. هذا الصباح كانت ردة فعلها هي الهروب منه، رغم أنه كان مستعداً للمخاطرة بحياته لإنزالها عن السطح.. أخذت بعد ذلك تفكر بشكل متطلق فهو ليس ذلك الغول المسؤول شخصياً عن تدهور صحة عمها.. حكمها عليه بهذه الصورة كان يمكن أن يستمر لولا أنه أحاط بها بذراعيه.

حين ضمها إليه، وأحست بقوته، تلاشى ألمها.. كان هذا شيء غريزي بدائي.. انساق تفكيرها معه.. ضغط ذراعيه حول جسدها، ودفء أنفاسه على خدها، تحدثت بلغة أبلغ من الكلمات، وكأنه تسلل إلى أعماقها ليلامس قلبها.

لم يكن الشاطىء في هذا الخليج خاصاً، لكنه يبعد عدة أميال عن أقرب شاطىء مزدحم.. حتى في أيام الصيف الدافئة، مثل هذا اليوم، كان هناك عائلة صغيرة، وزوجان أكبر سناً يسيران مع كلب، ورجل يجلس على صخرة يقرأ في صحيفة.. لم يكن أي من المتواجدين على الشاطىء ينظر إلى الآخر، وتوقفت شيلا تخلع حذاءها وتنفض منه بضع حصى مدببة.

كان الرمل صلباً، نظيفاً ورأت أن من الأفضل لها السير حافية، وهكذا لم تعد الحذاء إلى مكانه، ونفضت الثاني، ولفت الجوارب بشكل كرة وضعتها في جيبها، وكان ميل قد تقدم إلى حافة الماء.. ذلك هو مركبه الواقف هناك، وفهمت ميله للتطلع إليه، فهو رائع للنظر.

حين وصلته قالت:

ـ إنه مركب جميل.

ابتسم ميل:

ـ وهل أنت مولعة بالمراكب؟

كانت سباحة ماهرة، لكن هذا كان منذ زمن طويل، منذ كانت تُدعى إلى حفلات فوق ظهر اليخوت.. وقالت:

ـ لم يكن العم جايسون بحاراً ماهراً. كنا نبحر في مراكب بعض معارفنا

عندما كنا نأتي إلى هنا في العطلات المدرسية. لكننا لم نملك واحداً. ميتش يحب السيارات أكثر.

كانت الشمس حادة. فوضعت شيلا يدها تظلل وجهها، ولم تكن تعي أن عيناها كانتا حزينتين وهما تنظران إلى المركب الأبيض، ينسابُ بلطف مع الأمواج. وقال لها ميل:

ـ سأذهب في نزهة بحرية.. أتأتين معي؟

ـ أوه.. أرجوك! متى؟

ـ الآن.

ـ أوه.. أجل!

ـ لكن علي الذهاب إلى البيت أولاً.

ركضت أمامه بسرعة، فضحك، يلحق بخطواتها، وقالت:

ـ لو عرفت أن هناك فرصة لنزهة في المركب لعدت بالسيارة.

وأكملت معظم الطريق عبر الشاطىء، تسرع صاعدة على السلم الصخري، لتصل إلى حديقة المنزل الأبيض وهي تحس بوخز في خاصرتها، وقالت شاهقة:

ـ سأعود حالاً.. سأغير ملابسي وأكتب مذكرة لسالي.

كانت ترتدي قميصاً رمادياً من الحرير، وتنورة رمادية جميلة، وهما جزء من الملابس التي قدمتها لها سالي، وكلاهما كان ملطخاً إثر تسلقها البرج.

المشكلة، أنها لم تعد تملك ملابس رخيصة.. كان يمكنها أن تستخدم بنطلون جينز، وقميص قديم الآن، لكن كل ما وجدته كان فستاناً.. غسلت نفسها، ومع تلاشي التجهم عنها، أدركت أنها متهورة من شدة الإثارة.. فالخروج في نزهة بحرية ليس بذلك الأمر الهام جداً.. لكن المركب جميل واليوم رائع، ولقد عانت من صدمة رؤية القصر المحروق وأحست وكأن ثقلاً قد أزيح عن كتفيها.

كانت في المطبخ تقول للسيدة هارتس أين ستذهب، حين خرج ميل من المكتبة، وسألها: جاهزة؟

ـ أجل.

سألت السيدة هارتس:

ـ هل من رسالة، فيما لو قررت الآنسة أبمز أن تعود؟

قال ميل:

ـ لن تعود.. ليس هذا الأسبوع.

بدا وكأن زمناً طويلاً مرّ منذ سمعت شيلا ذلك الجدال بين ميل وفيونا، وبما أنها كانت سبب الخلاف، فقد أحست بنوع من المسؤولية لرحيلها. لكنها أحست بالسرور لأن ميل لم يهتم كثيراً.. ولا بد أن فيونا هي التي كانت ستبحر معه اليوم، وهذا أمر آخر سرّت له شيلا، أن لا تكون فيونا.. بل هي.

أحست شيلا أنها في منزلها منذ لحظة صعودها إلى سطح المركب «سي وند». غاتس، الذي قاد القارب الصغير وأوصلهما بدا مختلفاً في بنطلون عتيق وقميص. رجل بشعر أشيب ولحية، كل شيء فيه ينم على أنه بحّار قديم، رحب بهما على سطح المركب.

بدا متدهشاً لرؤية شيلا، ولا بد أنه كان يتوقع فيونا.. لكنه صافحها بحرارة حين قدمه ميل لها باسم ويلبي.. إنه يعيش فوق المركب، و «سي وند» بيته وطريقة حياته.

كان كل شيء في المركب مشعاً برّاقاً وكأنه قد طلي أو لمع ذلك الصباح وتمتمت شيلا:

ـ أوه.. إنه جميل، ألبس جميلاً؟

وابتسم الرجلان موافقين.

جلست على مقعد جانبي في المقدمة، بينما انطلق المحرك القوي ليخرج المركب من الخليج، وهي تراقب القصر المرسوم أمام لوحة السماء.. كانت لا زالت تتألم لمعرفتها أنه مجرد هيكل خاو.. لكنها لم تستطع إشاحة نظرها عنه إلى أن جاء ميل وجلس إلى جانبها، وقال:

ـ لا تنظري إلى الخلف.

فاستدارت تنظر إلى السماء، والبحر المفتوح، يمتدان أمامها كحياة جديدة لها أفق يمتد إلى ما لا نهاية. وقالت:

ـ أنت محق.. إنه منظر أفضل بكثير.. هل لي أن أستكشف المركب؟

تركها ميل تذهب وحدها، وأعجبها هذا.. فهذا يعني أنها قادرة أن

تتجول كما تشاء، تتفرج على أي شيء يثير اهتمامها.

نزلت إلى القمرة الرئيسية المصنوعة من خشب التك والمطبخ الصغير الأنيق.. بعد كابوس القصر بدا لها كل شيء نظيفاً وبرّاقاً، «طباخ، مغسلة، مقاعد، طاولة، حجيرة صغيرة للاستحمام، وسرائر مثبتة.

في القمرة الأساسية، كانت المقاعد على كلا الجانبين، تستخدم كأسرّة، لا بد أن ميل وفيونا ينامان هنا.

افترضت أنهما يمضيان ليال كثيرة على المركب.. فهو ليس مركباً لرحلة يوم واحد، بل هو عابر للمحيطات، وكم تمنت لو أنها مبحرة الآن..

جلست ترفع قدميها إلى الأعلى، تضع يديها تحت رأسها مستلقية على السرير المقعد.

لم تسمع دخول أحد إلى أن سمعت ميل يضحك، فجلست تقول:

ـ إنني أحاول أن أفعل ما أشاء.. أجرب كل شيء.

دخل المطبخ وهو يقول:

ـ افعلي ما شئت.

جلست تراقبه.. أمر لا يصدقه عقل أن تراه يعمل بأوعية المطبخ والمقالي، لكنه كان رشيقاً وسريعاً في ما يفعله، وكانت واثقة أنه قادر على أداء أي عمل على المركب كخبير.. وسألت:

ـ منذ متى وأنت ملاّح؟

نظر إليها وابتسم:

ـ أول شيء اشتريته كان مركباً.. بأول مبلغ من المال استطعت توفيره.

استطاعت شيلا أن تفهم كيف أن منزلاً عائماً صغيراً، هو الهروب المثالي من ضغط العمل على اليابسة، وقالت كأنها تعد نفسها:

ـ لو بقي معي أي مال، فقد أفعل هذا.. ليس مثل هذا المركب بالطبع.. لكن شيء يمكنني الإبحار به بعيداً.

ـ أترغبين في الإبحار بعيداً؟

ـ ومن لا يرغب؟

ـ وهل تعودين؟

ضحكت:

ـ ولمَ أعود؟ ما الذي ينتظرني هنا سوى كومة من المشاكل؟

كان كلامها يبدو مزاحاً لكن ما فيه من الحقيقة جعل ميل يكف عن الضحك.

ـ أصدقاؤك سيفتقدونك.

ـ أجل.

على الأقل ميتش سيفتقدها، ويضع أشخاص آخرين.. سالي مثلاً، ربما، لكن، ما من أحد قد يبحر خلفها ليعيدها. مالت على الحاجز الذي يفصل ما بين القمرة والمطبخ وقالت:

ـ ألا يمكن أن أتولى العمل هنا؟ أنا سريعة جداً في الطبخ.

ـ ليس اليوم.. أنت في عطلة.. في المرة القادمة، يمكنك المشاركة في العمل.

سرّها أن تسمع أن هناك مرة قادمة، وأن اليوم عطلة لها. الرجال الثلاثة كانوا يعاملونها وكأنها ملكة هذا اليوم..

قاموا بما في وسعهم للتأكد من أنها تتمتع برحلتها، وأروها كيف يعمل كل شيء.. وجرّبت الإمساك بالدفة، بواسطة الإطار الخشبي، وقال ميل معلقاً:

ـ ها أنت طفلة ذكية.

وجدت أن هناك روح وفاق رائعة بين الرجال الثلاثة.. ميل الذي كان «السيد» بالنسبة لغانس على البر كان هنا «الريس» غير أنه لا توجد هنا رتب رسمية، ولا أوامر تعطى.. كان ميل يرتدي ثياباً عادية مثلهما لكنه لا زال يحتفظ بهالة السلطة.. هاهنا هو «القبطان ورايت» «الريس» الحقيقي.

تذكرت شيلا هذا وهما يشربان المرطبات المعلبة، يجلسان في الشمس على السطح وقالت:

ـ الكابتن ورايت لا يجب أن يشرب المرطبات المعلبة.

حاولت أن تقول هذا بخفة، لكن صوتها بدا حاداً بعض الشيء، فنظر إليها ميل بعينين نافذتين متسائلتين، فقالت:

ـ كنا نسميك القرصان.. أنا و.. عمي.

وابتسمت لكنه قال بصوت ممازح:

ـ بالنسبة لاسم «ورايت» دعيت بالقرصان أكثر من مرة. لكنه قرصان انتهى كشخصية إصلاحية، وأصبح لوروداً وحاكم إحدى جزر الانتيل.

ارتفع حاجبا شيلا:

ـ شخصية إصلاحية؟!

فغمز لها يضحك، كخبيث في رواية ميلودرامية.

ـ لقد حصل على أفضل ما في العالمين، ذلك الشيطان العجوز.

هذا ما جعلها تضحك. وعرفت أنها لو استخدمت ذلك الاسم ثانية فلن يلقى أي سخط منه، بل سيكون مزاحاً. إنه بالفعل رجل رائع لطيف، وكانت سعيدة لأنه أصبح صديقاً لها.

عاد المركب يقترب من اليابسة مع انتهاء النهار، وسار بمحاذاة الخط الساحلي، وكان الرجال يدلونها على المعالم الرئيسية على اليابسة.

كان يقود المركب إلى الخليج مستخدماً قوة المحرك.. ووقفت شيلا إلى جانبه.. القصر والمنزل الأبيض كانا على مرمى النظر.. لكن أحدهما أسود، فارغ، بينما الأنوار كانت لامعة في نوافذ الآخر. المنزل الأبيض هو منزلها الآن، وتبدو الأنوار مشعة وكأنها ترحب بها.

قالت:

ـ كانت بداية هذا اليوم متجهمة.. لكن بقيته كانت رائعة.

ـ أنا مسرور لهذا.

بدا لها طول قامته مرعباً، خاصة وهي إلى جانبه، بحيث كان يقزّمها..

وقالت:

ـ كنتم جميعاً لطفاء، أحسست كأن اليوم عيد ميلادي وأنني في العاشرة من عمري.. لقد مر زمن طويل لم يدعني أحد بالطفلة الذكية.

وضحكت.. فقال بهدوء:

ـ لست طفلة.. بل أنت امرأة مكتملة.

فجأة، أحست بجسدها: ارتفاع وهبوط صدرها. بدت لها عظامها كأنها تحولت إلى سائل.. ولم تحتج لأن تقول: وأنت أيضاً رجل مكتمل.

النظرة بينهما لم تدم أكثر من بضع ثواني، ثم أدار رأسه، لكن خلال تلك النظرة، أحست شيلا وكأنها منجذبة إليه، والتراجع أخذ منها كل قوتها.

حين أبعد نظره، أدركت كم أرادته أن يقترب منها. وبيأس. لم تختبر من قبل هذا اللهيب الحار، على الرغم من برودة الهواء الذي يهب مع حلول الليل، وبدأت تقول:

ـ كان يوماً جميلاً، وأمضيت وقتاً رائعاً.. وأنا آسفة لشيونا..

وصمتت! أن تقول انها آسفة لرحيلها سيكون كذباً صارخاً.

وقال ميل وهو يبتسم لها:

ـ لا حاجة للأسف.

وابتسمت له.

كانت تعلم أنه في يوم قريب، سيمد يده إليها وستستجيب بشوق.. فالتجاذب بينهما قوي.. إنها تجذبه، ولأول مرة في حياتها، تحس أنها إلى جانب رجل يستطيع أن يجعلها متشوقة، بمجرد النظر إليها.

كانت مخطئة في كراهيته، كان هذا تعصباً أعمى.. لكن هذا التجاذب لا بد أن يكون جسدياً فقط، فهي لا تعرفه جيداً.. في الواقع بالكاد تعرفه. وربما من الأفضل لها أن تخطط لترك منزله. إنها معرضة للخطر طالما هي مقيمة هناك.. لكنها هذا الصباح، هربت منه لأول وآخرة مرة، وهي الآن لا تستطيع التفكير بأي شيء عدا الوقت الذي سترمي نفسها فيه بين ذراعيه وتتركه يعبر عن حبه لها.

***

٦ ـ اختيار سالي

لم تكن شيلا متوهمة بشأن المشاعر التي استيقظت بينها وبين ميل. وكانت تحس بوجوده كثيراً في الأيام التي تلت إبحارهما معاً، فهو عندما كان يدخل غرفة ما كان يفتش عنها، وحين يشاهدها كان يبتسم دائماً.

لاحظت سالي ما كان يجري: الابتسامات، الحديث الودي، ومساعدته لها في مشاكلها.. محتويات القصر التي سلمت من الحريق أصبحت الآن مودعة بأمان في مخازنه، محاموه كانوا يساعدونها في تنفيذ الوصية، وبناء على أوامره نُظف الحطام، ووضعت الخرائط والخطط لإصلاح القصر. وقد أبدى ميتش سروره لتحمل ميل المسؤولية نيابة عنه.

هكذا أصبحت شيلا مستقرة ومطمئنة من الناحية المادية لأول مرة منذ تركت المدرسة.

لاحظت سالي كل هذا، وبدت مسرورة لأن شيلا وميل كانا متفقين جيداً.. وكانت شيلا تضحك وتوافق قائلة:

ـ بالطبع فهو رائع.. إنه رجل ممتاز.

لكنها في الحقيقة لم تكن صداقة مبنية على الود والعرفان بالجميل.. حسناً.. ربما تكون هكذا ظاهرياً، لكن سالي لم تكن تعلم كم كانت شيلا تمضي الليالي مستيقظة، يمزقها الشوق.

لم تجرؤ على التفكير بما سيحصل. فيونا لم تعد، وربما كان ميل يلتقيها، لكن هذا قد يكون سراً، وقالت سالي إنها لا تظن هذا. وصلت رسالة بعد أسبوعين من حفلة العشاء على أثر قيامهما بالرحلة البحرية، بينما كان ميل مسافراً لزيارة مصنع بعيد، وأعلنت سالي أن الخط على الرسالة هو

خط فيونا.. وقالت شيلا وهي تقطع الخبز المحمص:

ـ أوه.. أتعتقدين أن علاقتهما عادت إلى سابق عهدها؟

لم تكن تحس بالغيرة. غريزتها كانت تقول لها إنها في الوقت الحاضر المرأة التي يريدها ميل ورايت.. وليس لديه وقت يقضيه مع غيرها.. كانت سالي قد قالت لها إنه لا يصادق سوى واحدة في وقت واحد.. وقالت سالي لها الآن:

ـ سمعت أنها تقول إن عليه المجيء لمصالحتها، وأنا أقول إنها ستنتظر كثيراً.. فهو لم يجرِ وراء امرأة طوال حياته، ولن يفعل. إذا رحلت عنه امرأة.. تبقى راحلة.

لكنه سعى وراء سالي أكثر من مرة، إلا أنها شقيقته، وهي كل عائلته.. وقالت سالي كأنها تقرأ أفكار شيلا:

ـ صحيح أنه أعادني أكثر من مرة، لكن الأمر هنا مختلف، أليس كذلك؟ ثم إنني في المرة القادمة التي سأرحل فيها، ستكون المرة الأخيرة.

ـ وهل أنت ذاهبة إلى أي مكان؟

ابتسمت سالي ابتسامة غامضة.

ـ أوه.. سأعطيك إنذاراً مسبقاً.. وربما تأتين معي.

ـ إلى أين؟

ـ أنت تعنين إلى من؟

كانت سالي لا تزال على اتصال بحبيبها الاسباني.. وكانت تكثر من الخروج وحدها، وعند عودتها كانت شيلا تعرف أنها إما أن تكون قد اتصلت به أو تلقت اتصالاً منه.. لم تقل هذا مباشرة، لكن الأمر كان واضحاً جداً، إذ كانت تتحدث عنه بعد كل مرة تتصل به. ولم تطرح شيلا الأسئلة. فهي تعرف أن الردود لن تكون مطمئنة، وقد ينقلب النقاش في هذا الموضوع إلى جدال. فسالي لا تتقبل نصيحة أحد، وكانت هذه المرة الأولى التي تتحدث فيها عن ترك المنزل.. والذهاب إلى غويدو يعني تأسيس بيت معه، والزواج. سألتها شيلا:

ـ هل قررت أن بإمكانك تدبير أمرك دون المال الذي يمنحه لك ميل؟

هزت سالي كتفيها.. فأكملت شيلا:

ـ لا يمكنك الحصول على عمل هناك بسهولة.

لكنها لم تضف أن كسب قوتها في أي مكان سيكون صعباً عليها.

ـ قد يغير ميل رأيه.. على أي حال قد يكون لدينا ما يكفينا لفترة طويلة.

ـ هل وفرت شيئاً؟

ـ من؟ أنا؟

كان سؤالاً ساذجاً فهي مبذرة جداً.. وقالت شيلا

ـ لا أظن الصياد يجني الكثير..

هزت سالي أنفها:

ـ أوه.. إنه فنان!

بدا على سالي وكأنها أرادت أن تعرف شيلا هذا، ربما ذكرت الصحف هذا لكن سالي لم تذكره من قبل. سألت:

ـ أي نوع من الرسوم؟

ـ إنه في الواقع يجعل الأشياء تبدو مختلفة. لديه نفاذ بصيرة رائعة.

ـ ألديك شيئاً منها؟ وهل تباع؟

ـ أجل، ويوماً ما سيكون مشهوراً.. وستربن.

ـ هل ستتزوجينه؟

صمتت سالي لبضع ثوان.. ثم رفعت رأسها، لتلتقي نظرات شيلا بعينين لا ترتجفان ووجه لا يبتسم.. وقالت:

ـ ممكن جداً.. لكن هذا سرنا لوحدنا.. أليس كذلك؟ لن نفشي سري لميل، أليس كذلك؟

ميل لم يكن يذكر غويدو هذه الأيام.. بدا مطمئناً أن سالي قانعة بأصدقائها الحاليين وطريقة عيشها.. مع أنها لم تكن حياة ناقعة، إلا أنها ممتعة.. حتى شيلا كانت تتمتع بحياتها. كانت تزور معظم الأماكن مع سالي، تتبضعان، تزوران الأصدقاء، تقودان السيارة إلى الريف لتناول الطعام في أماكن موصى لهما بها.. كانتا تذهبان إلى السباحة في الخليج. وتخرجان في المركب.. ولم يكن ميل يرافقهما.

كانت شيلا تكسب مرتبها بجدارة.. كانت تقوم بدور المضيفة إلى جانب سالي حين يقيم ميل حفلة عشاء لرجال أعمال أو أصدقاء.. السيدة

هارنس وزوجها كانا ناجحين في عملهما لكن شيلا كانت تهتم دائماً وتساعد في المنزل والحديقة معاً، وهذا ما كان يسعدهما. وكانت السيدة تقول عنها:

ـ إنها سيدة أصيلة بالولادة.. ولديها أسلوب أرستقراطي.. وتجيد الطبخ كذلك.

ردت سالي:

ـ لست أدري ما كنا فعلنا من دونها.

كانت شيلا تغرز بضع قطب في أحد فساتين سالي من جهة الخصر، بينما كانت سالي تقلب مجلة أزياء، حين دخل ميل الغرفة والتقط الصحيفة، وكانت الفتاتين تتحدثان، لكن حين قالت سالي إنها لا تعرف ماذا كانت ستفعل دون شيلا، نظر إليها ميل من فوق الصحيفة، وأكملت سالي:

ـ يبدو لي أن لديك كل المهارات المنزلية.

وافترضت شيلا أنها تبدو لافتة للنظر وهي تخيط.. لكن هذا لم يمنعها من الإحساس بالغباء. وقالت:

ـ لا تصدقي هذا.. هناك الكثير من الأمور المنزلية التي لا أعرف عنها سوى القليل.

تحدثها سالي تسأل: مثل ماذا؟

هزت شيلا كتفيها بشكل مبالغ فيه:

ـ الكثير، ولن أبدأ بسردها.. تعالي جزيي هذا..

الحب هو أحد الأمور المنزلية لفتاة في الثانية والعشرين، والتي لا تبرع فيها أبداً، فهي لم تقابل من قبل رجلاً تريده ولا يمكن لهذا أن يكون موهبة، لذا من المحتم أن تكون غريزتها مسؤولة عن هذا.

كانت تتطلع إلى الرجال من أصدقاء سالي.. كمجرد أشخاص في مجموعة اجتماعية، كانت تسمع الإطراء والدعوات، لكن ما من واحد منهم جعل نبضها يتسارع.. بعضهم كان أعزباً غير مرتبط، لكنهم لم يجعلوها تفقد تبصّرها أو تستبعد ميل عن تفكيرها.

أحد أفضل أيام النزهات، من وجهة نظر شيلا، كان اليوم الذي قضياه بصحبة ميتش وفريق التلفزيون.. الذي حضر لتصوير مسرحية جديدة، مستوحاة من قصة قديمة، ينفذها مجموعة من الممثلين الشبان.

وكان فريق التلفزيون يتابع مراحل العمل عبر زيارات خاطفة يقوم بها. أما الآن فالأسبوعين القادمين، سيشهدان الإكمال، وفريق التصوير يصور آخر مراحل المسرح، التمرينات، وليلة الافتتاح الأولى.

لم تكن شيلا قد سافرت كثيراً من قبل، فهي في الواقع لم تفارق العم جايسون خلال آخر ستة أشهر. وحين توقفت أمام المبنى المتألق، استدارت إلى سالي، وانفجرت بالضحك. لقد بدا لها البناء مرحاً مبهرجاً. وسألتها سالي:

ـ ما هي النكتة؟

ـ لست أدري.. لكن ألا يبدو المكان مذهلاً؟

أوقفت السيارة، حيث تقف مجموعة من السيارات وأسرع شخص يعرفها، يعمل مهندس صوت في التلفزيون اسمه طوني مارش، ليستقبلهما.

كانت شيلا قد قابلت الفريق في زيارات سابقة لميتش وكانت تحظى بصداقة الجميع، ولطالما أكد طوني أنه يعتبرها جذابة. كان طوني مطلقاً، وكثيراً ما كان يخرج معها خلال زياراتها إلى لندن.. وقد حاول مراراً أن يقنعها بترك القصر والانتقال للسكن في شقة ميتش.. لكنها كانت تبتسم، وتبقى على عنادها. فالقصر والعم جايسون كلاهما يحتاج إليها.. لكنها الآن حرة، وطوني كان يبقي عينيه مفتوحتين بانتظار وصولها.

كان يوماً حافلاً بالعمل. راقبتا التصوير والمقابلات وتفحصتا المسرح بديكوره الفيكتوري، الأحمر القاتم والمذهب. وشاهدتا تمارين الفرقة، وعندما كانت سالي تتجول حول المكان كانت تبدو جميلة كأي فتاة من ممثلات الفرقة.

ودعهما الجميع. وكان فريق التلفزيون يقيم في فندق محلي، ووعدتا بالعودة بعد أسبوعين لحضور ليلة الافتتاح.. وقبل ميتش الفتاتين، وودع طوني شيلا.. خلال انطلاقهما قالت سالي:

ـ طوني معجب بك.. أليس كذلك؟

ـ هذا ما يقوله، لكنه لا يستهويني.

ضحكت سالي:

ـ ولا أنا.. فهو يذكرني بدمية دب كبيرة كانت عندي.

كان هذا حكماً متسرعاً. فطوني مارش في الواقع شاب ذكي موهوب.. وشيلا معجبة به أكثر من أي واحد من المعجبين الآخرين بها من أصدقاء سالي.. ما عدا ميل.. مع أن أي واحد منهم لا يمكن أن يقارن بميل وكأنها قد ارتبطت معه، وكأنها تضع الرباط الذهبي في اصبعها.

سالي وشيلا كانتا من بين مشاهدي ليلة افتتاح المسرحية. كان المسرح مكتملاً.. مئة وخمسون مقعداً، لكن حين امتلأت المقاعد بالمتفرجين، الذين يطلقون الصيحات والهتاف على الطريقة القديمة نعم الجمع بوقت ممتع.

كان فريق التلفزيون سيغادر في الصباح.. وانطلقت الفتاتان إلى المنزل بعد منتصف الليل بقليل. أدارتا راديو السيارة، ووضعتا التسجيلات، تقودان بسعادة تحت سماء لا نجوم فيها. عبر طريق أجرد مكشوف، في منطقة ريفية وعرة.. فجأة، ارتجت السيارة وتقطعت، حتى توقفت تماماً.

كانت سالي صامتة لأميال، تعسى، مكورة في المقعد إلى جانب شيلا:

ـ ماذا حدث؟

وجلست محتدة، وعضت شيلا شفتها لتمنع نفسها من القول، لقد توقفنا.. فهذا بكل تأكيد قول غبي.. وقالت:

ـ لست أدري.. لم ينفذ منا الوقود.

كانت الأضواء لا زالت مضيئة، لذا لا يمكن أن تكون البطارية. مع ذلك، لم يحصل شيء أبداً حين أدارت المحرك مجدداً. إلى جانبها كانت سالي تعوّل:

ـ لا يوجد شيء هنا.. لا ضوء، لا منزل، لا شيء.. أنتفهمين شيئاً عن المحركات؟

ـ أمور الماء والزيت.. لكنني لن أتمكن من إضاءة المصباح اليدوي تحت الغطاء وأحاول شيئاً.. آسفة

ـ يجب أن نجد غرفة هاتف، أو أي منزل، لنتصل بالكاراج أو جمعية السيارات.

تهاوت سالي في مقعدها، ترفع ياقة سترتها المصنوعة من الفرو.. وعرفت شيلا أن عليها العمل لتكسب مرتبها.. فرحلة اليوم كانت لأجلها.

منتديات ليلاس الثقافية

فشيلا هي التي كانت واعية في رؤية ابتش.. وقالت:

ـ من الأفضل أن نبعدها عن الطريق.

ـ كيف؟

ـ سندفعها.

فغرت سالي فمها، فسارعت تثنعها:

ـ هيا، ساعديني. إلا إذا كنت مستعدة للمخاطرة بأن تكون هدفاً لضربة، خلال ذهابي للبحث عن غرفة هاتف.

وهذا ما حرّك سالي. ومع أن شيلا، قامت بمعظم العمل، إلا أن سالي كانت هي التي تنهق حين أوصلنا الإطارات الأربعة فوق العشب أخيراً. مالت السيارة قليلاً، لكن الأرض كانت صلبة وعادت سالي بسرعة إلى الداخل.

في الخارج كانت الليلة باردة، ريح باردة وضباب. كانت شيلا ترتدي فستاناً حريرياً وسترة مخملية، وحذاء عالي الكعبين. وهذا أسوأ استعداد للانطلاق في الظلام.. سألتها سالي وهي تخرج باكتئاب المشعل من الصندوق.

ـ أتريدينني أن اجيء معك؟

كانت تحكم وضع سترة الفرو حولها، وأحست شيلا أن عليها على الأقل أن تعبرها السترة، لكنها لن تطلبها منها.. وبدت سالي شاردة مثيرة للشفقة، عيناها واسعتان، تنتظر أن يقال لها ما تفعل.. وقالت شيلا:

ـ لا فائدة أن نبرد كلينا.. اقفلي الباب. أنت تجلسين في مجرى تيار هوائي.

سارت لمسافة ميل.. وخلال هذه المسافة مرّت سيارة واحدة لكنها تجاهلت الإشارة التي قامت بها بالمشعل اليدوي، ولا يمكنها لوم من فيها، فهذه منطقة قاحلة، والوقت متأخر، وهي مجرد جسد لا شكل له، ولا يمكنهم المخاطرة. لكن الضباب بدأ يتكثف، والبرد يتغلغل حتى العظام. مع ذلك لم تشاهد أية أضواء.

قدرت أن تكون البلدة التالية على بُعد خمسة أميال.. فجأة وضعت قدميها على بقعة غير مستوية من الطريق فانطوى كعب حذائها تحتها تماماً.

وبقي معلقاً.. لن تتمكن من مواصلة السير، خاصة في حذاء مكسور الكعب، ويجب أن تعود إلى السيارة.

أنيت الكعب الآخر صلابة شديدة، فلم ينطو أو ينكسر.. لكنها في النهاية سارت كالعرجاء، وهذا مؤلم لعضلات الربلة.. وأحست بالفرح لرؤية السيارة. كانت الأنوار مطفأة، دقت على النافذة، فرفعت سالي رأسها الأشعث الشعر، ووجهها الشاحب المذعور.. فقالت شيلا:

ـ هذه أنا.

ففتحت سالي الباب:

ـ أوه.. يا لحبيبتي المسكينة! هل السماء تمطر في الخارج؟

كان شعر شيلا ملتصقاً بجبهتها، وأسنانها تصطك.

ـ لا.. إنه الضباب.. والجو بارد جداً.

ـ أليس معك أحد؟

ـ لم أجد هاتفاً.. فعدت.

صاحت سالي بإحباط:

ـ أوه.. لا!

تنفست شيلا بصعوبة.. سالي تنعم بالدفء هنا بينما هي تسير في البرد، لكنها كما يبدو صدمت لأن شيلا لم تكافح في سيرها حتى الفجر. وسألت شيلا:

ـ وماذا يهم لو بقينا هنا طوال الليل؟ على الأقل، السيارة دافئة وجافة.. والطقس قارس في الخارج.. ولقد تحملت كل ما أستطيع تحمله، خاصة وأنني لا أظن أن هناك بلدة حتى أميال بعيدة، والظلام شديد لأتمكن من رؤية المنازل.. ولم يبد لي أنني أمرّ بشيء سوى الحقول والأشواك. لكن إذا رغبت في الذهاب فلا تدعيني أمنعك.

بعد حوالي خمس ثوانٍ، قالت سالي:

ـ أوه!

فقاطعتها شيلا بسرعة:

ـ إذا بقينا معاً في السيارة، وأضأنا كل الأنوار، فقد يرى من يمر بنا أن السيارة معطلة، وأننا بحاجة إلى العون.

ـ طبعاً.

وسارعت سالي تضيء الأنوار والإشارات الخاصة بالضباب، ثم استقرت في مقعدها. وجلست شيلا على أمل أن تمر سيارة تفكر بإنقاذهما وتقف إلى جانبهما.. لكنها كانت تحس بالبرد الشديد، ولا ترى أي أمل في الحصول على الدفء إلا في حمام ساخن.. هكذا قررت أن تقترح:

ـ أيمكن أن نقفي قرب الطريق لبضع دقائق ونحاولي إيقاف سيارة؟

بدا على سالي الرعب، فأكملت:

ـ لا.. بالطبع لن تفعلي هذا، حسناً عودي إلى النوم.

ـ وهل ستقفين في الخارج؟

ـ لخمس دقائق، وإذا لم أجد أحداً سأستسلم.

قالت سالي، بصوت بطولي:

ـ أعطني المشعل.

تركتها شيلا تقف في الخارج إلى أن أحست ببعض الدفء في أصابعها المجمدة.. ولم تكن الخمس دقائق قد انتهت بعد عندما خرجت من السيارة.. كانت سالي تقف على حافة العشب، تنظر إلى الطريق المظلمة الطويلة، من خلال الضباب المتصاعد المخيف.. حين إستدارت، شهقت شيلا، فقد أظهر نور المشعل بعض الدموع على خديها.. فسألتها:

ـ ما الأمر؟

ابتسمت سالي بقلق:

ـ أوه.. كم أنا غبية.. لكن، فجأة بدا لي كل شيء.. موحشاً.

ردت شيلا باتزان:

ـ حاولي العودة إلى النوم.

أخذت المشعل من يد سالي المسترخية.. لكنها سرعان ما شاهدت أنواراً من بعيد فقالت بحماس:

ـ هناك شيء قادم.. أوه.. بكل تأكيد سيتوقفون!

كان القادم سيارة شحن للمسافات البعيدة، وكان الرجلان فيها شديدا اللطف والمساعدة.. ألقيا نظرة على المحرك، وحكما أنه عطل فيه، شيء ما أفلت منه.. أعاداه إلى مكانه.. و.. قووم! دار المحرك.

عبرت شيلا عن امتنانها لهما حتى أنها كادت تقبل دعوتهما إلى فنجان قهوة في مقهى التقليات خارج البلدة، لكن إيصال سالي إلى البيت كان له الأولوية، هكذا مع الكثير من الشكر العميق.. قادت الفتاتان السيارة بعيداً.

جففت سالي وجهها بمنديل ورقي، وما هي إلا ثواني حتى لفت نفسها بسترة الفرو، ونامت دون حركة.

ساعتها فقط أحست شيلا بالتعب.. كان يوماً متعباً، والحذاء المكسور الكعب لم يكن يساعدها في قيادة السيارة.. اشتهت فنجان القهوة الذي دعيت إليه.. ونظرت باشتياق إلى المقهى الليلي ساعة مرت به.. لكن سالي نائمة، وعلى الأرجح أنهما لن تصلا المنزل قبل طلوع الصباح.. هذا دون تضييع أي وقت. لقد جعل الضباب ما تبقى من الرحلة طويلة ومتعبة، وجهد لا ينتهي.. والطريقة الوحيدة لتبقى يقظة وحذرة، هي أن لا تسترخي لحظة أو ترتاح، في وقت تستغرق فيه سالي بالنوم، وبدأ لون السماء يتحول من الأسود الداكن إلى الرمادي الداكن.

عندما توقفت أمام المنزل، أحست بحرقة في عينيها وانحنت على المقود واضعة رأسها بين ذراعيها المطويين.. وتأوهت سالي:

ـ يا لها من ليلة فظيعة!

التوت شفتا شيلا بتكشيرة متعبة فهي لا تظن أنها كانت فظيعة إلى هذه الدرجة بالنسبة لسالي، التي لم تستفق إلا مع توقف السيارة.

ثم انفتح الباب من جهتها، ورفرفت عينيها الحمراوين، لترى ميل يصرخ في أذنها:

ـ أين كنتما بحق الجحيم؟

وربما لم يكن في الواقع يصرخ، لكن صوته كان يقرقع كالسوط، مما جعلها تجفل، وترجلت سالي من السيارة تلتفت نحوه وتقول:

ـ كنا في المسرح، وتأخرنا لكي نحضر حفلة الافتتاح.. ثم تعطلت السيارة، وعلقنا إلى أن جاء رجلان طيبان وأصلحاها لنا.

بقيت شيلا في مكانها، تدعك مؤخرة عنقها.. وأخذت سالي تتثاءب بينما يلتف شعرها المشعث حول وجهها الصغير.. وقال لها ميل:

ـ الأفضل أن تذهبي إلى النوم.

والتفتت إلى شيلا:

- أعتقد أنه لم يخطر ببالكما أن تتصلا بالهاتف إلى هنا!

ردت متعبة:

- لا.. لم يخطر لنا هذا.

كانت مرهقة متوترة. فقد نالت كفايتها من التعب.. حين خرجنا في الصباح أخبرنا السيدة هارتس أنهما ستعودان حوالي منتصف الليل. والآن، طلع الصباح.. لكن ميل كان يتصرف وكأن الغلطة كانت غلطة شيلا حتى أنه لم يفكر بسلامة سالي.

كل اهتمامه كان معلقاً بسالي.. بدا قلقاً وهو يطلب منها أن تذهب إلى النوم، لكنه واصل صراخه على شيلا، قائلاً لها بلهجة آمرة:

- في المرة القادمة قولي لأحد إلى أين أنت ذاهبة!

ردت ساخرة:

- بالطبع، ولو أنك تجهزني بجهاز إرسال نقال، لأبلغتك عن تحركاتنا ساعة بساعة.

- لا تكوني سخيفة!

كان ينظر إليها بسخط، وتمتمت ترد عليه بالنظرة ذاتها. لكنها كانت تشعر بحرقة شديدة في عينيها بحيث لم تستطع أن تديم النظر إليه بثبات أكثر من ثلاث ثوانٍ، ثم رفرفت عينيها.

أمسكتها سالي بذراعها:

- أوه.. تعالي.

خرجت من السيارة.. أرادت أن تقول لهما معاً ماذا يمكنهما أن يفعلا بوظيفتهما، لكن رأسها كان يدور من شدة التعب.. لذا يجب أن تنتظر.

خطت إلى الخارج، مشيتها غير متزنة بحذائها ذي الكعب المكسور، ترغي وتزبد في نفسها لأن سالي لم تدافع عنها بكلمة.. لقد عاد ليكون مجدداً منال الأب المتخلف. ولم تذكره سالي أن ليس هناك قانون يمنعهما من الوصول إلى المنزل مع الفجر.. ولو أنه اعتنى بشؤونه الخاصة، وذهب إلى النوم، لكانتا وصلتا قبل موعد الفطور بكثير..

عندما بلغتا آخر السلم وبعد أن أصبحتا بعيدتين عنه، سألتها:

- لماذا لم تدافعي عني؟ لماذا تركته يعاملك كطفلة؟

لكن كطفلة مدللة.. بينما كان تمرأ شرساً على شيلا، وتراجعت بحدة عن نظرتها السابقة إليه كرجل لطيف متفهم.. إنه لطيف متى ناسبه ذلك، لكنه جلف قاسي الفؤاد حين يغضب. أي شخص ينظر إليها يستطيع رؤية كم هي مرهقة.. لكنه لم يرَ أي ضرورة لأن يقترح عليها الخلود إلى الراحة، وقالت سالي:

- لأنني لم أشأ أن يغضب.. ليس الآن.

كانتا قرب باب سالي وكانت تتثاءب ووجدت شيلا من الصعب أن تمنع نفسها عن التثاؤب، مع ذلك سألت:

- وما هو المميز الآن؟

نظرت في الممر الفارغ، وأخفضت صوتها هامسة:

- إنه في انكلترا.

- من؟

- من تظنين؟

انفتحت عينا شيلا المتورمتين واسعاً.. فلا بد أن سالي تتحدث عن غويدو.. وقالت شاهقة:

- منذ متى وهو هنا؟

- منذ فترة.

- وماذا ستفعلين؟

- يمكن أن آخذ بنصيحتك وأواجه ميل.

- ولماذا لا؟

كانت شيلا متعبة حتى أنها لم تعد مكترثة لما قد يحصل لو واجهت سالي أخاها المستبد بحبيبها العنيد.. مالت سالي إلى الأمام، شفتاها قريبتان من خد شيلا:

- سأنام على الأمر الآن.. أنت مصدر ارتياح لي.

وبدأت شيلا بالتثاؤب.

بإمكانها أن تقنع بالقليل من الراحة والمواساة وهي تزحف متعبة باتجاه السرير.. لكنها لن تنتظر أن يقرع ميل على بابها فهو لن يحضر الليلة، ولا في

أي ليلة أخرى.

لم يفكر بها جدياً كحبيبة في يوم من الأيام، وإلا لكان صارحها بهذا منذ أيام. إنه ليس بالرجل الذي ينتظر.. فهي موظفة مقيدة له. لكنه لا يريد التورط بشكل مباشر في علاقة جسدية أو عاطفية.. وما تشعر به نحوه ليس إلا افتتاناً غير ناضج وكأنه افتتان مراهقة.. وستتغلب على هذا قريباً.. ولن تحزن لأجل هذا المتسلط الذي نظر إليها الليلة وكأنه يريد أن يختفها وهو يجرها إلى خارج السيارة..

نامت متأخرة، وحين استيقظت نهضت متثاقلة لأنها كانت بحاجة إلى أن تنام.. ولا أحد يزعجها.. وحين نهضت وأنهت ارتداء ملابسها، وخرجت، التقت بالسيدة هارتس خارج الباب، وقالت السيدة بإشفاق:

- إذن مرورتما بوقت عصيب ليلة البارحة؟ الشاب كان كثيفاً جداً هذا..

- والقليل كثيراً هذا كما رأيته اليوم! بعصبي أكثر.. لم أر فتى قبل صلوت السيارة.

بدت وكأنها كانت تشعر بالقلق تجاه شيلا أيضاً، وهذا أمر لطيف منها، وهو أفضل مما أبداه ميل تجاهها.. وقالت تشرح لها:

- لقد تعطلت السيارة.

هزت المرأة رأسها.. إنها تعرف هذا.

- طلبت سالي أن أتركك نائمة، لكنني فكرت أنك ربما ترغبين بفنجان شاي.

أخذت شيلا الفنجان منها:

- شكراً لك.

أخذت ترشفه وهما تسيران معاً، وسألت:

- هل استيقظت سالي؟

- استيقظت منذ مدة.. وخرجت.. تاركة مذكرة لك.

وأدهشها سماع هذا.

كانت المذكرة على طاولة الفطور ولم تفتحها شيلا على الفور. بل تركتها في مغلفها المختوم، واستمرت تحتسي الشاي.. فهي تعرف أنها لا

تحتوي في داخلها سوى المشاكل، وهي تشعر بالاشمئزاز من المسألة كلها.

لقد استغلتها سالي.. كانت مجرد غطاء لها لفترة لا تعرف مداها..

وإذا كان ميل يعتقد أن شيلا أخطأت في عدم اتصالها ليلة أمس، فماذا سيقول لو سمع هذا.

كان من المفترض أن تكسب شيلا ثقة سالي.. مع ذلك لم تلاحظ شيئاً يشير إلى وجود غويدو.. وربما لم تشأ أن تكون عارفة بكل شيء وتخفيه عن ميل، وإلا لكانت أحست بعدم ارتياح فظيع بإخفائها سراً كهذا عنه.

مررت أصبعها على الغلاف، تنظر إلى اسمها بخط سالي الكبير [illegible] وفكرت: لا داعي لكثرة التخمين أني هي الآن.. إنها مع غويدو.. وهي تتوقع مني أن أكذب حتى يسألني أحد، فأقول إنها عند طبيب الأسنان، أو إنها تقوم بزيارة لبعض الأصدقاء.. على الأرجح، لقد كذبت قبل الآن.. لو أنه هذا لفترة طويلة.. لكنني كنت أردد ما كانت تقوله لي، ولم أكن أعرف أنني أكذب [illegible].

ربما عليها أن ترفق رسالة سالي مع كتاب استقالتها وتتركهما على طاولة ميل.. وهذا سيشرح له كل شيء.. لكنه بالتأكيد سيغضب للطريقة التي استغفلته فيها سالي..

[illegible] تذكرت الصدمة على وجه السيدة جاد تسره وهي رتجها. صينية الفطور تنزلق..

كانت شيلا تخرج الورقة وتقرأها: «قررت أن أعمل بنصيحتك.. ستتصل بك هذا المساء في السادسة والنصف، أرجوك لا تقولي شيئاً قبل هذا الوقت».

سألت السيدة هارتس، وهي تفرغ محتويات الصينية على الطاولة:

- هل ستبقين هنا اليوم؟

- لا.. لن أبقى حتى المساء.

أية نصيحة قالتها لها؟ ما عدا ما قالته ليلة أمس أن تتحدى ميل؟

لاحظت السيدة هارتس قسمات وجهها التي ارتسم عليها القلق:

- أكل شيء على ما يرام؟

وكادت شيلا تفضي لها بكل شيء.. لقد ساعدت في تربية سالي، وربما ستفهم مسألة غويدو.. لكن تركيز سالي على كلمة الرجاء، قفز

أمامها، وبعد لحظات تردد قالت:

ـ كل شيء على ما يرام.

كان واضحاً أن في الرسالة شيء ما.. وانتظرت أن تسألها السيدة عنه. وأخيراً بعد أن رمقتها بنظرة حادة خرجت السيدة هارتس، وصبت شيلا لنفسها كوباً آخراً من الشاي وهي تهز رأسها.

سالي لن تعود الليلة، وإلا لما قالت إنها ستتصل هاتفياً.. الوقوف في وجه ميل قد يعني إخباره أنها برفقة غويدو.. لكن إذا لم تكن تخطط لإيصال الخبر وجهاً لوجه، فعليها إما الحديث معه على الهاتف أو ترك الأمر لشيلا.

عندما جاءت إلى هنا أول مرة تصورت شيلا نفسها تقوم بهذا.. واعتقدت أنها ستتمتع برؤية ميل وهو يقلق على سالي لاعتقاده أنها تتجه إلى تحطيم قلبها ثانية.. لكنها الآن لا تريد أي دور في المسألة.. لقد منحتها أسرة ورايت وظيفةً وساعدتها، ولقد حاولت أن ترد لهم الجميل بمثله.. لكن عليهما أن يعالجا هذا الأمر مباشرة بين بعضهما البعض. لقد سئمت أن تكون الوسيطة.

لم تستطع تناول الفطور، وتناولت فقط فنجان شاي آخر. ثم صعدت إلى غرفتها. ستنتظر مكالمة سالي، لتخبرها أن عملها هنا انتهى، وأنها ستغادر. لن تستغرق وقتاً طويلاً في توضيب الحقائب، ولا شيء يصعب وضعه في صندوق الميني.. كل ثيابها تقريباً دفع ثمنها ميل. حتى ولو كان من حقها أن تأخذها فهي لا تريدها. لقد اشترت بضع أشياء بنفسها، بمرتبها، ويمكن لها أن تحمل هذه إلى السيارة.

ستذهب إلى مينش، وتبدأ حياة جديدة هناك. فهذه المحاولة للبدء بحياة جديدة لم تستمر طويلاً.. لكن ربما المحاولة القادمة ستكون أفضل.. لا شيء يبقيها هنا.. إنها غير متقيدة بآل ورايت.. لكنها ليست متحررة بالكامل من القصر.. لقد توقفت عن التفكير به منذ تولى ميل أمره.. فسيباع الأثاث بالمزاد في الشهر المقبل، ولا بأس بهذا، فليتم هذا.. لكن القصر نفسه، تريد أن تجد من يشتريه منها.

كان ميل يفكر أن يحوله إلى مركز مؤتمرات وتدريب على الإدارة، والشخص الذي سيشتريه يجب أن يعيد بناءه.. وليس هناك سواه أظهر أي

اهتمام.

ارتدت معطفاً خفيفاً، إنه يوم دافيء، وأخذت دفتر رسائل ومغلفاً من الدرج، ثم ذهبت إلى الكاراج تخرج سيارتها الميني.. وعندما كانت تقودها عبر الطريق الداخلية، شاهدت كورب في الحديقة.. لوّح لها، وردت عليه بينما هي تفكر بأنها ستشتاق لمساعدته في عمله..

حين وصلت طريق القصر، كادت أن تتجاوزه.. وبتهور كانت تفكر بأن تترك كل شيء وراءها.. لو أن لدي مركباً، فلن يراني أحد لسنوات عديدة.. أحست بوخزات الألم لتذكرها «سي وند» فقد كان هذا في ذلك اليوم الذي ظنت فيه أنها لن تستطيع بعده الهرب من ميل.. لكنها في الغد ستكون متجهة إلى الابتعاد عنه قدر ما تستطيع.

ستنتظر مخابرة سالي، ثم ستواجه ميل.. إذا كان متعقلاً فستترك المنزل بهدوء في الصباح.. لكنه إذا بدأ بالصراخ فستتركه في التو والحال. فهي لم تكن يوماً حارسة لسالي، ولا هو، وستقول له هذا قبل أن تتركه. كما قالت له هذا منذ البداية.

ستبقى خارج المنزل طوال النهار، كي لا يطرح أحد عليها أسئلة لن تتمكن من الإجابة عليها بشأن سالي.. والمكان الوحيد الذي بإمكانها أن تذهب إليه الآن كان القصر. يجب أن تلقي نظرة عليه قبل أن ترحل، ثم قررت أن تذهب إلى الشاطيء، وتكتب بعض الرسائل.

كانت قد جاءت إلى هنا عندما كانت عملية هدم القصر تتم عدة مرات، وكانت قد أصبحت متحكمة بمشاعرها تماماً.. آثار الحريق السوداء والتي كانت تثير الرعب تم تنظيفها تماماً، سيعاد بناء القسم الداخلي من جديد، هذا إذا أراد ميل متابعة المشروع.. أما إذا لم يرغب، وإذا لم يرغب أحد آخر بالشراء، فسيبقى بين يديها مجرد خرائب.

كان الرجل المشرف على العمل لطيفاً ودوداً ممتلىء الجسم، حياها بابتسامة.. كان فخوراً بالسرعة التي كان يزيل فيها الحطام ويرميه بعيداً.. وقال:

ـ ليس سيئاً.. هه؟

وقفت في مواجهة المدخل الفارغ تتطلع إلى هذه القوقعة الفارغة الكبيرة

التي كانت يوماً ما منزلها والتي كانت تحوي تقريباً كل شيء عزيز على نفسها. وتساءلت إذا كان يتوقع منها أن تقول.

- رائع.. لم يبدُ يوماً أفضل من هذا.. أنت بكل تأكيد لا تضيع وقتك.

قال بمرح:

- إنها أوامر السيد ورايت.

السيد ورايت هو من يدفع التكاليف وإذا قرر أن يغير رأيه بشأن شراء القصر، فهل سيرسل لها فاتورة كل هذا؟ وهذا ما جعلها تبتسم.. بالطبع لن يفعل. فهو يعرف وضعها المالي جيداً، لكنها الآن أصبحت تتمنى لو أنها حصلت على عقد يحمل توقيعه ويحدد بموجبه السعر المتفق عليه.

كانت سالي قد قالت لها: أتركي الأمر لميل.. وكانت مستعدة لأن تتركه يدبر كل شيء.. كانت تنظر إليه كصديق.. بل كحبيب.. بالكاد كان يلامسها، مع ذلك كانت تحمل شوقاً إليه ملأ أيامها ولياليها باللوعة، إلى درجة أنه أعماها عن رؤية مصالحها وتمنت أن لا تندم على إهمالها لمصالحها. وتمنت أكثر أن يتلاشى اشتياقها إليه عندما ترحل.

جلست على صخرة عند الشاطئ تحت القصر، وكتبت رسائل لعدة أصدقاء، تعطيهم عنوان ميتش.. جعلت الرسائل مليئة بالأخبار المتفرقة المرحة، وكأنها كانت في عطلة استجمام هنا، وقد أصبحت مستعدة الآن لبداية جديدة، وقررت أن لندن تقدم لها فرصاً أفضل.

كان هناك مراكب عدة في الخليج، لكن «السي وند» لم يكن هناك.. حين أنهت رسائلها، جلست ترقبها. فهي لن تكون هنا ولأمد طويل. آخر مرة كان ميل معها هنا، ولو أغمضت عينيها لاستطاعت أن تحس بذراعه حولها، كما ضمها في المطبخ المحترق في القصر، وقال لها «تمسكي بالذكريات الجيدة» ولديها الكثير من الذكريات الطيبة في هذا المنزل..

كانت حياتها مرضية لها كمرافقة لسالي. لكن الذكرى الأهم لها، لم تحصل عليها. وستبقى تتساءل: كيف يمكن أن تكون علاقتها معه؟

ركبت سيارتها وذهبت إلى البلدة القريبة، تناولت وجبة من اللحم والسلطة، رغم أنها لم تكن تشعر برغبة في الأكل.. ثم قامت بجولة على المحلات إلى أن بدأت تقفل في الساعة السادسة. فعادت إلى المنزل

الأبيض.

ستصل مخابرة سالي في أي لحظة.. ودخلت الردهة من الباب الجانبي، آملة أن تتسلل إلى غرفتها دون أن يراها أحد.. كانت تفضل أن تتلقى المكالمة حيث لا يراها أحد، وأفضل مكان سيكون غرفة سالي. بإمكانها الجلوس على السرير، والتقاط السماعة بعد أول رنة، ولكن إذا رفع أحد سماعة أخرى فهذا أمر مؤسف جداً.. لن تستغرق المكالمة وقتاً.. كل ما ستقوله شيلا هو الوداع وحظ سعيد.

وضعت قدمها على أولى درجات السلم حين انفتح باب المكتبة.. لا بد أنه لم يكن مقفلاً تماماً، وبدا أن ميل كان ينتظرها، وقال لها:

- إيلا.

أرادت أن تقول: «لا تناديني إيلا» لكن فكرة استلام مخابرة سالي، وميل يراقبها، أطبق فمها، حتى أنها لم تستطع سوى أن تشهق. كان يمسك بيده قطعة ورق مجعدة:

- ما هذا؟

أهي رسالة سالي؟ لكنها كورتها ورمتها في سلة مهملات غرفتها.. كان يجب أن تخرجها من المنزل معها، وتتخلص منها في الخارج. لكن تفكيرها كان مشوشاً جداً فلم تتوقف لتفكر بأن شخصاً ما قد يفتش في سلة المهملات.

استدار عائداً إلى مكتبه، ولحقت به، ووضع الورقة على طاولته، وكانت رسالة سالي. واهتز صوتها بالسخط:

- كيف تجرؤ..؟ وما هذا؟ دولة بوليسية؟

جلس:

- قولي لي أنت ما هذا.

أشار إلى كرسي آخر، لكنها تجاهلت إشارته.. لم ترغب في الجلوس، كانت تريد الخروج. جفناه الضيقان حولا عينيه إلى شقين أسودين.. لكن دون أن يفقد قدرته على النظر إلى شيء. وقال لها بصوته العميق البطيء:

- جئت إلى البيت لتقول لي السيدة هارتس إن سالي رحلت في الصباح

حاملة حقيبة، وتركت لك رسالة غامضة.. وذهبت لتبحث عن الرسالة.. وهذا غير أخلاقي، لكنني أتفهمه.

من المفهوم أن تقلق السيدة هارتس على سالي، لكنهما لا يمكنهما حمايتها إلى الأبد.. وقالت:

ـ سالي فتاة ناضجة.. فلماذا لا تتركها تعيش حياتها؟

ـ أهذه كانت نصيحتك..؟

هزت كتفيها:

ـ بطريقة ما.. أعتقد. قلت لها أن تواجهك.

ـ إنه رجل.. بالطبع؟

كل تمردات سالي كانت بسبب الرجال، وكانوا كُثر. لطالما كانت حكماً سيئاً على شخصيات الرجال.. لكن لو أنها ذهبت الآن إلى غويدو، فلا أحد يستطيع إبعادها عنه..

ـ أظنها تهتم به حقاً.. فلماذا لا تعطيها فرصة؟

ابتسامته كانت متجهمة:

ـ ألن أكون على حق في التفكير أنهما يريدان الحصول على مالي أكثر من الحصول على بركتي؟

تمنت لو تستطيع التأكيد له أن هذا الرجل لن يمس قرشاً واحداً من ماله.. لكن كل ما استطاعت قوله كان:

ـ إنه فنان.. لكنه ليس غنياً.

ـ وهل أعرفه؟

ـ أجل.. لكن.. لست أدري ما أقول، ولا أعرف ما أخبرك به، يجب أن تتصل.

نظر إلى ساعته:

ـ تأخرت دقيقتين.. سالي ليس لديها إحساس بالوقت، وقد تضطر للانتظار طويلاً.

نظرت شيلا إلى جهازي الهاتف الموضوعين على الطاولة.. خط يستخدمه لمتابعة أعماله والآخر للمنزل، وتمنت أن يرن الأخير.. وهمست لنفسها «رن.. أرجوك.. اللعنة عليك.. رن» فكلما سارعت سالي في

الاتصال سيتولى ميل الأمر وترتاح.

هذا شأن عائلي.. وكانت ستقول.. استقبل المكالمة أنت.. لولا أن لسانها كان يلتصق بسقف حلقها، رغم أن ساقيها كانتا أكثر ثباتاً.

حين رن جرس الهاتف، التقطه ميل، وأصغى لحظة ثم أعطاه لشيلا دون أن ينبس بكلمة. أمسكته، تبتلع ريقها، أما هو فقد خرج من الغرفة، ودخل غرفة الجلوس وأقفل الباب وراءه.

سمعت صوت سالي:

ـ شيلا..؟ هل أنت هنا؟ آلو؟ آلو؟

لعقت شفتيها وقالت:

ـ شقيقك شاهد رسالتك.. وكان يحاول انتزاع المعلومات مني.

ـ هل هو معك؟

ـ سأستدعيه.. تكلمي معه.

صاحت سالي بحدة:

ـ لا.. أريد التحدث إليك!

ـ حسناً؟

ـ ماذا قلت له؟

أحست بقدميها ترتخيان، فاستدارت حول الطاولة وجلست.

ـ ليس الكثير.

ومن حيث تجلس كانت ترى عبر الردهة مباشرة، باب غرفة الجلوس المغلق.. وقالت سالي:

ـ أنا آسفة لهروبي هذا الصباح.. لكنني كنت يائسة جداً بالأمس أثناء عودتنا بالسيارة. كنت أفكر طيلة الوقت أنني لا أستطيع الاستمرار هكذا.

ابتسمت شيلا بقلق.

ـ وأنا من فلتنتك نائمة.

كان في ردها رنة صدق، لكن شيلا لم تتخيل سبب يأسها:

ـ أوه لا..! كن فتيات جميلات.

أية فتيات..؟ الممثلات؟ وأكملت:

ـ وفكرت، إنه يلتقي بفتيات مثلهن طوال الوقت في عمله.. ويجب أن

أكون معه.

كانت كأنها تسمع شيئاً بلغة غريبة.. فتفكير شيلا كان يدور في رأسها ويثلثها.. وسألت:

ـ عمّ تتحدثين؟

رد صوت رجل:

ـ ألو.. حبي..

ـ ميتش؟ أهذا ميتش؟

ـ بالطبع ميتش!

ماذا يفعل ميتش هناك؟ أيعرف غويدو؟ هل ذهبا إلى عنده؟ ثم عادت سالي إلى الكلام:

ـ كنت تعرفين.. أليس كذلك؟ لا بد أنك خمّنت!

خمنت ماذا؟ أن سالي ذهبت إلى ميتش؟ وأنه ميتش وليس غويدو؟ وسمعت نفسها تسأل:

ـ لكن.. دارلين..

رد ميتش:

ـ دارلين لا زالت هنا.. فلديها غرفتها الخاصة.. لكننا افترقنا منذ أشهر.

هكذا هي علاقات ميتش، تشابه علاقات سالي كثيراً.. وهذا أمر مشترك بينهما، لكنه ليس ارتباطاً مطمئناً، وسألت بحدة:

ـ منذ متى.. أنت وسالي؟

لا بد أن هناك سماعة أخرى، فقد ردت سالي:

ـ التقينا في استوديو التلفزيون حين كانوا يجرون لي تجارب للظهور في الإعلان.

ـ لكن هذا كان قبل سفرك إلى إسبانيا؟

كانت شيلا تحاول ترتيب الأمور في ذهنها.. فحتى الآن كان كل شيء [illegible] والغمازات في

فقد تركني أذهب دون أن يطلب الزواج مني.. ثم إن هذا خدع كتّاب الشائعات، أليس كذلك؟.

بدت سعيدة بنفسها، لكنها على الأرجح جرحت غويدو.. وأضاعت وقت ميل.. وسألت شيلا:

ـ لماذا أزعجت نفسك هكذا؟ لماذا لم تعترفي أنكما تقابلان بعضكما؟

أجاب ميتش وهو يتكلم ببطء، وكأنه يريدها حقاً أن تفهم:

ـ لقد أعجبنا بعضنا منذ أول لقاء لنا.. لكننا كنا نحتاج إلى وقت لنقرر ما إذا كانت مشاعرنا أكثر من إعجاب.. وسالي تحصل على أكثر مما تستحق من الرعاية.. أحسسنا أننا بحاجة إلى النفلت من مراقبة الصحافة لنا في كل خطوة نخطوها.. فأبقينا الأمور سراً.

قالت شيلا بمرارة:

ـ وإلى أي مدى نجحتما؟

سارع يدافع:

ـ اسمعي.. كنت أعرف ما هو شعورك، وشعور العجوز، تجاه ميل.. وما كنتما ستفتحا ذراعيكما مرحبين بسالي، ولا أظن ميل سيوافق على أن ترتبط أخته بمصور سينمائي.

قالت بسخرية لاذعة:

ـ روميو وجولييت.. لم تعد بحاجة للقلق بشأن العم جايسون بعد الآن. لكن لماذا تظنان أن ميل قد يغير رأيه؟

ـ لأنه لم يكن يعرفك بعد.. ويجب عليه أن يعترف أن هناك شيئاً مطمئناً عني، ولي أخت رائعة مثلك.

أرادت أن تضع السماعة مكانها بقوة.. أحست أنها محشورة في زاوية، ثم خداعها لتصبح في مركز مزيّف:

ـ لا تتكلم بمثل هذا الهراء.. وما دخلي في كل هذا؟

قال ميتش:

ـ بإمكانك أن يكون لك دخل كبير.

بعجبه في امرأة.

كانت منلبدة الذهن وهي تستمع لكل كلمة كان يتفوهان بها ودون وعي منها احسّت انها مثورة [illegible]

ـ ما الذي يفترض بي أن أقول له؟ إنك انتقلت للسكن مع أخي وأعطيه العنوان، كي يرسل لك مصروفك؟

لم تفهم سالي إن هذا كان استهزاءاً، وقالت:

ـ أجل.. لكن ليس بهذه الوقاحة، فلن أستطيع الحصول على شيء إذا لم يدفع لي ميل.. وميتش سيصبح مشهوراً في يوم ما..

ـ هذا ما قلتيه لي.. لكنني كنت أحسب أنك تتكلمين عن غويدو.

ـ أوه.. لا أظنك ظننت هذا! ليس في الواقع! طلب مني ميتش أن لا أصارحك بشيء.. ألم تخمني حبيبتي؟ كان يرى أن من الأفضل أن تكتشفي الحقيقة بنفسك.. لكن، كان يجب أن تعرفي أنني كنت دائماً أتحدث عن ميتش.. كل شيء قلته لك كان عنه.. وصورته كانت في حقيبتي طوال الوقت. ولم تطلبي رؤيتها.. لكن بكل تأكيد نظرت إليها.

ـ لست معتادة على النظر في حقائب الأخريات.

تساءلت شيلا لماذا تزعج نفسها بقول هذا، إلا لكي تبرر بلاهتها.. هذا ليس عادلاً.. لقد خدعتماني وكأنني طفلة صغيرة، تفوقتما عليها بالحيا والدهاء في لعبة ما.

ربما كان هناك إشارات في نظراتهما، في طريقة كلامهما.. لقد قالت سالي إنه قد كان هناك دلائل وافرة، وبدأت شيلا تدرك هذا. منذ بداية وصف سالي لحبيبها «أسود الشعر مجعد، ولمسة شيطان» والمجيء بشيلا إلى هنا.

لقد بذلت غاية جهدها لتجعل شيلا فاتنة، ولتقدمها بطريقة مناسبة إلى ميل، لأنها هنا ممثلة ميتش، وسفيرته. وهذا ما أحست بكراهية له، وأرادت أن تصرخ بهما بشدة لكن صوتها اختنق بغصة ألم وقالت:

ـ كان يجب أن تقولا لي بكلمات لها معنى محدد بدلاً من تركي أعتمد على فطنتي، إذ يبدو أني لست فطنة كفاية. أنا بليدة الذهن.. غبية، غبية جداً لكي أصدق ما يقال لي.

قال ميتش:

ـ حبي.. لا تفعلي هكذا. ظننتك فهمت، أو على الأقل كونت فكرة ما، ولو تمالكت نفسك..؟ لماذا الشوارد لف حالي.. في الأطبوع سنتم تقريباً.. لكننا ظننا نصف مهيأة، ثم نذهب معاً لنخبر ميل.

ألقت شيلا نظرة على باب غرفة الجلوس، وتصورت الرجل القابع في الداخل، وسألت:

ـ ومن سيخبره الآن؟

وعندها ميتش:

ـ سنأتي في الغد.. سنكون معك في الظهيرة.

لكن هذا وقت طويل:

ـ وماذا أقول له الآن؟

ـ بإمكانك القول إن سالي وأنا نحب بعضنا كثيراً.. وسنتزوج في الحال، ونريده أن يكون سعيداً لأجلنا.. لكن إذا لم يستطع فهذا أمر مؤسف جداً

ـ وهل هو أمر مؤسف؟

تصورت شيلا نفسها تدخل إلى هناك وتقول هذا.. لكنها لم تستطع تصور سماع رد متفهم من ميل ورايت.

قال ميتش:

ـ أنا آسف حبيبتي.. لم أكن أريد أن تواجهيه وحدك.

لكن شيلا استوعبت بعض ما تستطيع استيعابه وأحست بصداع يمزق رأسها. وقالت:

ـ سأراكما في الغد معاً.

سارت مباشرة إلى غرفة الجلوس.. لم يعد هناك وقت للتفكير. فالتفكير بالأمر لن يساعدها.. كان ميل يقف قرب المدفأة. ربما كان يبتسم، لكن ابتسامته ليست من النوع الذي يجعلها تكون بحال أفضل وقال:

ـ مخابرة طويلة.. هل هي مع الفتان؟

سارعت شيلا تبوح بما في نفسها:

ـ سألتني منذ قليل عما إذا كنت تعرفه.. إنه ميتشل، أخي. ويقولان إنهما سيتزوجان.

ولم تعلم حينذاك هل ازداد عمق ابتسامته، أم أنها الخطوط حول فمه:

- كنت أفكر بمثل هذا الاحتمال.

- أكنت تفكر أنه قد يكون ميتش؟

- علاقتها بالإسباني انتهت.. ولقد تزوج بالفتاة التي خطفته سالي منها. وأحاك شاب جذاب بمكن وصفه دون التزام بأنه فنان.. ثم هذا يفسر لماذا تدافعين عن قضيتهما.

منذ عشر دقائق لم تكن تعرف أنه ميتش، وقالت:

- حسناً.. إنه ليس غنياً، لكنه موهوب.. وكان بالإمكان أن يكون اختيارها أسوأ من هذا بكثير.

- أتظنين هذا؟

في هذه اللحظات كانت تحس بالحنق تجاه ميتش لكنها عادة تحبه.. لكنها لم تعتقد أن فرصة نجاح زواجهما ستكون كبيرة، على الرغم من أنه لن يجرح كرامتها كما فعل زوجها الأول بها.. فلقد قال إنهما يحبان بعضهما.. وقالت:

- ميتش يحبها.. وتأمل منك أن تستمر في الإنفاق عليها.. لكن المال لا يهم ميتش.

رمى رأسه إلى الوراء ضاحكاً، حدقت به ساخطة ثم حاولت منعه عن الضحك بالصراخ:

- لا يهمه! ميتش لا يهتم بالمال، إنه.. إنه ليس انتهازياً.

نظر إليها بعينين قاسيتين كحجر صوان، ورد، لكن بصوت منخفض هذه المرة:

- اللص شخص انتهازي من أسوأ الأصناف.

حاولت شيلا أن تضحك.

- لص؟ أوه.. أتعني أنه سرق سالي؟ هيا الآن!

- أنت هيا الآن، آنسة سوليفان القادمة من بلبون كاسل!

وأحست بالرعب من هذا الازدراء الذي تسمعه وكأنه وجه لها ضربة قاسية، مع أن الرجل لم يتحرك.. وأكمل:

- أنت تعرفين، وأنا أعرف، أننا نتكلم عن المال.. النقد.. الاختلاس.. هذه المرة حصلت سالي لنفسها على محتال!

٧ - الرهينة

صرخت شيلا بوجهه:

- لا بد أنك جننت!

لكن ميل أكمل:

- لقد اكتشف المحاسبون هذا عندما قاموا بمراجعة السجلات.. اختلاسات صغيرة، لكنها ليست أعمالاً مشرفة.

لا بد أنه كان يتحدث عن مؤسسة العائلة. لا بد أن ميتش مد يده إلى المال حين كان يعمل هناك.. ومع أنها كانت دائماً تظن أن من المسلم به أن أخاها صادق شريف فقد اكتشفت الليلة أن هناك الكثير مما تجهله عنه.. وسألت:

- هل أنت واثق أنه ميتش؟

وكانت نظرة ميل هي الرد الكافي، وعندما لم يعد لديها شك بما يقول.. قالت بتعاسة:

- لم أكن أعرف.. لم يكن لي دخل بإدارة الأعمال.. كنت أدير القصر ومن المفترض أن يدير ميتش المؤسسة.. هذا ما كان مخططاً له دائماً..

أجفلت لبسمته الساخرة، وأكملت بيأس:

- ولم أكن أعرف كذلك أن سالي ستقابله اليوم.. كنت أظن أنه الإسباني.. كم أنا غبية.

كانت قد خطت بضع خطوات إلى الداخل، وسارعت تضع يدها على مؤخرة كرسي لتسند نفسها، فساقاها لم تعودا قادرتين على حملها.. وقال ميل:

ـ أوه.. لا.. لن نتفق على هذا الافتراض. أنت لست غبية بل أنت فتاة حاذقة، لكنك وجهتني لآخر مرة، وطالما نفهم هذا معاً، فقد نتمكن من التعامل مع المشكلة.

لكنها لم «توجه» أحداً، هي التي خدعت، وسألت:

ـ ميتش وسالي؟

ـ وهل لدينا مشكلة أخرى؟

لديها مشاكلها الخاصة لكن ميل لن يتحدث عنها. وقالت:

ـ لا أستطيع التفكير بمشكلة أخرى. أتمانع لو جلست؟

صدمتها المخابرة وآلمتها، ومعرفتها أن ميتش كان يخدع العم جايسون ويغشه كانت بمثابة ضربة مزدوجة، تزيدها بؤساً. جلست، وهي تعد نفسها أن تخرج بسرعة من هذا المأزق، إذ سترحل غداً. ليس الليلة، لأنها تشعر بالانهيار التام.. سترحل في الغد.

تقدم ميل حتى أصبح واقفاً أمامها مباشرة:

ـ سيتزوجان غداً؟

هزت رأسها بالإيجاب. لقد أخبرته أنهما قالا لها هذا، وأكمل:

ـ حسناً.. لا نستطيع منعهما.. أليس كذلك؟

بالطبع لا يستطيعان، وأبقت رأسها منكساً، عيناها على يديها المتشابكتين، مع ذلك كانت تشعر بأنه يراقبها.

وسألها:

ـ أتظنين أن زواجهما سيكون أوفر حظاً فيما لو ساعدتهما؟

قالت ببطء:

ـ أظن أن سالي ستكون أكثر سعادة.

كان هذا رأيها الصادق.. فميتش عادة مفلس، وسالي كانت دائماً، فتاة ثرية، وإذا لم تواجه أياماً صعبة فقد تنجح.. ويبدو أن ميل يفكر بمد يد المساعدة.

ـ قد أكون مستعداً للدفع.. لكن، بضمانة.

الضمانة المالية الوحيدة التي يمكن لها أن تقدمها هي القصر.. هذا إذا كان لا يزال يهتم به. لكنها لم تشعر بذلك السخاء تجاه ميتش وسالي في هذه

اللحظات.. فالأمر مختلف بالنسبة لميل.. إنه لا يأبه بالمال. ولطالما أحست بحرصه على سالي.. وقالت:

ـ قالا إنهما قادمان غداً إلى هنا.. عند الظهر.. وأعتقد أننا قادران على الاتصال بهما، فأظنهما في منزل ميتش، مع أنني لست متأكدة.

ـ لا داعي لإفساد ليلتهما.

أدارت رأسها إليه بحدة، وسألت:

ـ أي نوع من الضمان تطلب؟ القصر؟ أتقترح عليّ أن أساعد على استقرارهما؟

ـ هذه هي الفكرة.

حاولت أن ترد، لكن الرد جمد على شفتيها عندما قال ميل:

ـ سأستمر في دفع مخصصات سالي، مع إمكانية دفع بعض الزيادة.. شريطة أن تبقي هنا.

احمر خداها وهو ينظر إليها، فهو لم يكن لديه ذرة احترام لها، وربما القليل من الإعجاب.. لكن الرغبة ما زالت موجودة، وكذلك الإدراك الحسي.. وأجابت بخشونة:

ـ ولماذا تحتاجني؟.. عشيقة مقيمة؟

ـ إذا أصريت على هذا.

خنقها الغضب، وتقدم إلى المكتب في الجانب الآخر من الغرفة، يفتش أحد أدراجه عن شيء ما. ونظرت شيلا إلى كتفيه العريضتين.. من الأسهل الكلام معه وجهاً لوجه وسألت:

ـ لماذا إذن؟

ـ لأن أخاك يحبك كثيراً. وإذا تذكر دائماً أنك في منزلي، فقد يؤثر هذا على طريقة معاملته لسالي.

يريدها هنا كضمانة لحسن تصرف ميتش تجاه أخته! لا بد أنه فقد عقله!

وأكمل:

ـ ثم، أن لك عملاً هنا.. أنت تتعاملين جيداً مع الخدم، وأنا بحاجة لامرأة تستقبل ضيوفي، وتجلس على رأس المائدة. لقد خسرت سالي، ولا أشعر برغبة في الزواج، وأنت مناسبة تماماً.

أول رد فعل لها كان التفكير بأنها فعلاً متاسبة، وأنها ستتولى عملها بشكل رائع. وسارعت لتتنوه بأول تساؤل خطر ببالها:

ـ ماذا سيظن الجميع، لو أن سالي ذهبت. وبقيت أنا؟ ماذا يظنون بوضعي؟

طوى عدة أوراق، ثم التفت إليها، وقال بصراحة:

ـ معظمهم سيظنها أحبة، لكن أحداً منهم لن يهتم.

هذا صحيح.. ما من أحد سيهمه ما قد تفعل.. ولن يكونا حبيبين..

وسألته:

ـ ولو ذهبت.. أتتركهما يعيشان بسلام؟

ابتسم وهو يرد:

ـ لو ذهبت، فسأسرب للجميع خبراً مفاده أن كل من يفكر بعمل مع ميتشل سولبقان، عليه أن يعيد النظر.

ـ سيكون هذا تشهيراً.. وبإمكانه مقاضاتك.

لكنها كانت تعلم أن ميتش لن تكون له فرصة، وأن كلمة من ميل ورايت ستقضي على مستقبله، وأن ميل لا ينوي تركها تغادر منزله.. وأحست بالفخ يطبق عليها.. وقالت بشفتين متصلبتين:

ـ أنت لا تريدني هنا لأشرف على إعداد الطعام مع السيدة هارتس، أو القيام بدور مضيفة لك. بل أنت تريد من تسوطه بسوطك، من تعاقبه إذا لم يحالف الحظ ميتش وسالي.

كان لا يزال يبتسم وهو يرد:

ـ هذا يبدو لي انحرافاً مازوشياً.

ـ أنا لست منحرفة.. مازوشية.. فهل أنت منحرف سادي؟

كانت قد قامت عن كرسيها.. لكن مع أنه كان لا زال يقف في الجهة الأخرى من الغرفة إلا أنه بدا لها يقف بينها وبين الباب.. وقال لها:

ـ قد تكتشفين هذا بنفسك. والآن اعذريني..

انكمشت إلى الوراء، وهو يمر بها، ثم وقفت جامدة إلى أن قطع الردهة ودخل المكتبة، وركضت كالريح تصعد السلم، عبر الممر الموصل إلى غرفتها.. أغلقت الباب وأقفلته.

لم يكن لديها فكرة عمن تقفل الباب ضده.. ميل لن يلحق بها، ولا تتصور أن السيدة هارتس ستحضر لتبادل الحديث.. ليس بعد أن عيثت بسلة مهملاتها باحثة عن رسالة سالي.. لكنها كانت تريد إبعاد الجميع. فهي لا تريد رؤية أحد الليلة، ولا تحس أنها تثق بأحد.. وهنا، على الأقل، يمكنها أن توهم نفسها بالأمان.

على الأرجح ستقضي ليلة قلقة، لكنها تذكرت أقراصاً منومة وصفها الطبيب لها بعد احتراق القصر.. وابتلعت حبتين لتنام دون أحلام، وتستيقظ والساعة قد تجاوزت العاشرة لتشعر بصداع خفيف وعينين ثقيلتين، لكن، لم يقترب أحد منها. وفيما هي ترتدي ثيابها رن جرس الهاتف.. لكن لو كانت المكالمة لها.. لاستدعاها أحد.

في غرفة الفطور، كان هناك بعض الخبز المحمص والقهوة الساخنة. وجلست وحدها، تشرب القهوة وهي تقلب قطعة الخبز بين يديها.. عندما خرجت من غرفة الفطور لتدخل إلى غرفة الموسيقى رأت أن الردهة كانت فارغة.

لم تكن تعرف ما هي الخطوة التالية التي ستقدم عليها حتى يصل ميتش وسالي، شعرت برغبة في نفض يديها منهم جميعاً.. لكنها بدون شك تحب العيش هنا.. وإذا بقيت هنا، فستكون قريبة بما يكفي لمتابعة شؤون القصر.. وبإمكانها الرحيل فيما بعد. ما من أحد بإمكانه أن يرغمها على البقاء في مكان ما وهي غير راغبة بذلك..

أبواب الكاراج كانت مقفلة، ولا مجال لها لمعرفة ما إذا كان ميل في المنزل أم لا، وقد يعود منتصف النهار ليرأس «المؤتمر». لكنها كانت تقريباً واثقة أنه لا زال في المنزل. وأعصابها المتوترة أبلغتها أنه قريب من هنا.

الوضع متوتر.. وهي منلهفة.. وليس بالضرورة أن يكون تلهفها له علاقة بوجود ميل ورايت.. أدارت جهاز التسجيل. وفتحت الباب قليلاً.. هذا سيشعر الجميع بأنها هنا، وقد يبعدهم عنها. على أي حال هذا أفضل من الجلوس فقط.. كانت متوترة كقطة محاصرة، ولا تستطيع الجلوس بارتياح.

اختارت الشريط كيفما اتفق، أول شريط وصل يدها، ووقفت عند

النافذة حيث تستطيع رؤية سيارة ميتش أو سيارة سالي. تقترب من على الطريق. وانطلق صوت المغني «أنا لن أندم أبداً».

سارعت شيلا تخفض الصوت.. فمع حظها السيء الآن، سيسمعها ميل ويقرر أن هذا موجه ضده.. وإلا لماذا تملأ المنزل بصراخ التحدي من أنها لن تندم أبداً على شيء فعلته؟ صحيح أن هذا لم يكن بقصد ماكر، لكن الصوت كان قوياً.

وعادت إلى النافذة، تتهيأ لأن تكون موضع مراقبة طويلة. لكن، تقريباً على الفور ظهرت سيارة سالي، وميتش وراء المقود.. ولم يشاهداها بالطبع. خرجا من السيارة، وسارا نحو المنزل، ذراعاً بذراع، يتحدثان مع بعضهما بجد.. رؤيتهما أعادت الغصة إلى حلق شيلا.. وانزعجت منهما، لقد وضعاها في موقف حرج، لكنها لا تملك سوى أن تأمل لهما بحياة جيدة

خرجت من غرفة الموسيقى فيما هما يدخلان الردهة، ووقفت تنتظر وهما يركضان نحوها.. وسألها ميتش وعيناه تتفحصان وجهها:

ـ أنت بخير؟

ـ لماذا تسأل؟ هل ظننت أن ميل سيضربني حين أخبره بحقيقة الأمر؟

شهقت سالي ضاحكة، لكن تعابير ميتش كانت صارمة وقال:

ـ لقد اتصلنا ليلة أمس مرة أخرى، ورد علينا ميل، قائلاً إنك ذهبت إلى غرفتك، ولا يرغب في إزعاجك، وإنه سيرانا هنا في الحادية عشرة.

الساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف.. وبدا الوقت طويلاً منذ أن غادرت غرفتها، ولا بد أنهما انطلقا من لندن في وقت مبكر جداً. قالت بحدة:

ـ وجئتما راكضين لرؤيته.. إذن أنتما لا تخططان للعيش على الحب فقط؟

سبقتهما شيلا إلى غرفة الجلوس.. وقد اصطبغ خداها بحمرة وازداد لمعان عينيها.. وأمسكت سالي بميتش، الذي قال:

ـ أنا لا أملك ثروة. وأحب سالي.. لكنني لا أستطيع أن أوفر لها هذا النوع من الحياة.. كما أنني لن أكون صهراً مثالياً لميل، أليس كذلك؟

ـ لا.. ولا علاقة للأمر أنك تقوم بأعمال حرة.

قالت سالي بسرعة:

ـ أوه.. أعرف هذا.. لقد أخبرني ميتش.. سرعان ما أصبحت الأمور جدية بيننا.

ـ ولم يخبرني أحد.. لم يتفوه العم جايسون بكلمة حول تلاعب أخي بالمال.. وقد ذهلت ليلة أمس من شدة المفاجأة عندما أخبرني ميل أن سالي هذه المرة اختارت لنفسها لصاً.

احمر وجه ميتش خجلاً، وبدا لشيلا كطفل صغير ضبط يفعل شيئاً سيئاً.. قال:

ـ بالله عليك.. أنا لم أسطُ على بنك انكلترا! كنت ضجراً حتى عظامي من تلك الوظيفة، واقترضت من المال ما يكفي لسد حاجتي إلى أن أوفق بإيجاد عمل.. هذا كل شيء. كان عمل العائلة، ولا بد أن العمل مدين لي بشيء، ولم أعتقد أن أحداً سيلاحظ هذا.

صاحت شيلا ساخرة:

ـ لكنك لم توضب دفاتر الحسابات جيداً.. فسرعان ما اكتشف محاسبو ميل القصة.

وربما هذا هو ما حطم معنويات العم جايسون وليس فقدانه للمؤسسة، ربما كان هذا أيضاً سبب بكائه.. قال ميتش بخشونة:

ـ كان المبلغ بضعة آلاف فقط.. وأنا آسف على هذا حبيبتي. ثم حين التقيت بسالي كان هذا سبباً آخر كي لا يقبل ميل بي.. لهذا لم نرد أن يعرف قبل أن..

تردد، فأكملت شيلا له:

ـ قبل أن يُعجب بي؟ أوه.. إنه يعتقد أنني سيدة جميلة.. لهذا لا يريدني أن أرحل. لقد دعاني للبقاء هنا.

أجفل كلاهما، ثم قالت سالي:

ـ حسناً.. هذا أمر رائع.. أليس كذلك؟

سألها ميتش: لماذا؟

ـ لقد تدربت على إدارة القصر.. وبدلاً من ذلك سأساعد على إدارة

المنزل هنا . . سيخسر سالي ، ويحتاج إلى مضيفة مقيمة .

التقت عينا ميتش عينيها اللامعتين ، وفي عينيه ألم وتوسل :

ـ وهل تريدين البقاء؟

قالت شيلا متوترة :

ـ المكان مريح هنا . . وأين يمكنني أن أجد وظيفة مماثلة؟

ـ يمكنك المجيء إلينا . . وسرعان ما ستجدين . .

رمت الكلمات بحدة تقاطعه :

ـ لا . . شكراً لك .

ودخل ميل الغرفة ، تحيطه هالة مميزة من القوة والسلطة ، فصمت الجميع ، بانتظار أن يتكلم ، لكنه لم يتكلم . بل نظر إلى كل وجه من الوجوه التي أمامه باختصار ، ثم جلس مسترخياً كأنه القاضي ، بينما وقف الثلاثة في مجموعة صغيرة ، وأحست شيلا أنها أحد المهتمين .

وكسرت سالي الصمت :

ـ تعرف ميتش .

رد متجهماً : جيداً .

وسمعت شيلا أخاها يبلع ريقه بصعوبة ، ثم يحرك كتفيه ، وشعرت بالأسف عليه وهو يحاول مواجهة ميل .

ـ لست مضطراً الآن أطلب منك يد سالي .

ـ أنت لست مضطراً لأن تطلب مني شيئاً .

صوته كان عميقاً أكثر من أي وقت آخر . . وقد جعل التوتر ميتش يبدو صغيراً . . وأكمل ميل :

ـ لكنك مضطر ، لأنك بحاجة إلى المال ، فحياتك قائمة على ميزانية محدودة وضيقة .

منذ ليلة أمس عرفت شيلا أن ميل قد تفحص وضع ميتش المالي ، كي يستطيع محاسبته حتى آخر جنيه . . ولم يحاول ميتش أن يخدعه . . وقال :

ـ حسن جداً . . أمر بظروف صعبة ، لكننا سنتدبر أمرنا .

نظرت سالي إليه بحب ، وقالت لأخيها :

ـ ميتش يحبني . . وسنتدبر أمرنا ، ثم أنت لا تعرفه جيداً . . كان عملاً

سخيفاً منه أن أخذ ذلك المال ، وفعل هذا بطيش وندم عليه . أنت تعرف عنه هذا لكنك في الواقع لاتعرف أي شيء آخر . . لكنك تعرف شيلا .

أمسكت يد شيلا ، وكانت تمسك باليد الأخرى يد ميتش . وسألت ميل :

ـ أنت موافق عليها . . أليس كذلك؟ وهما متشابهان . . ومن يحب شيلا ، يحب ميتش .

ورسمت ابتسامة على أطراف فمها . . وأحست شيلا ببرودة نظرة ميل الساخرة . . وقال متشدقاً :

ـ فريق رائع . . أواثقان أنكما لستما توأمين؟

وهذا معقول ، لأنهما متشابهان تماماً : ذات الشعر القاتم والعينين الزرقاوين ، والوجه البيضاوي الشاحب البياض ، والجسد النحيل الطويل الساقين . . بدا لشيلا أن الوقوف هنا وميل يقارنها بميتش ، أمر مذل مرير ، وكأنهما شخصان خدعاه ويسعى الآن لاسترداد ماله . . من يحب شيلا يحب ميتش . . حقاً؟ كان يجب على سالي أن تقول «من يحتقر ميتش ، يحتقر شيلا» .

أرادت أن تحرر يدها من بين أصابع سالي الناعمة وتقول لميل : «أنا لا أشبه ميتش . . فتحت مظهرنا نحن مختلفان كما أنت مختلف عن سالي» لكنها لن تقول الحقيقة ، فميتش أخوها بالدم ، ومع أنها ما كانت لتمد يدها إلى مال أحد ، إلا أنهما متشابهان كثيراً . . صحيح أنها بقيت في منزل العائلة بينما رحل هو ، لكن في أعماق قلبها كانت فجرية الطباع مثله تماماً . . ولا يمكنها التبرؤ منه ، إنها مرتبطة به ، وتعرف الآن أنها الأقوى .

قالت :

ـ نحن لسنا توأمين . . بل أخ وأخته فقط . . مثلكما .

كان ميل دائماً يدعم سالي . وهي ستدعم ميتش . . فجأة ابتسم ميل ، تلك الابتسامة الجذابة التي لم ترَ مثلها منذ ليلة أمس ، وقد تكون زائفة دون أن تعلم ، لكنه بدا ودوداً ، وقالت سالي باستعجال ، وكأنها تريد مفاجأته في مزاجه الحالي :

ـ ستتزوج في الشهر القادم . . أرجو أن تأتي .

ـ سأكون في أميركا معظم الشهر القادم . . لكنني واثق أن شيلا ستكون

هنا . . ويمكنها أن تمثلني .

بدا دمثاً ، لطيفاً ، لا سخرية في صوته . وأضاف :

ـ أخبرتكما طبعاً بأني سأمنحكما مصروفاً لكما معاً طالما تعمل لأجلي .

لم تكن قد أخبرتهما بعد عن مصروفهما وعن ارتباط هذا الأمر بها . . لذا كانت هذه مفاجأة أوقعت تغيراً فكلاهما بدا حائراً . . ولم يعرفا أيبتسمان أم لا . . أيسخر منهما أم لا . . وقررت شيلا أن لا تذكر عقدة الابتزاز الأساسية . . إنها إذا لم تبقَ ، فلن يقطع المصروف فقط ، بل إنه قد يسرّب خبر الاختلاس .

لكنها في الوقت الحاضر ، ستبقى ، ولا داعي للشجار :

ـ سأحب أن أجيء إلى زفافكما ، وأتمنى لكما السعادة .

طوقت سالي عنق شيلا بذراعيها صائحة :

ـ أوه . . أنا محظوظة بحصولي عليك كأخت !

قال ميل بصوت أجش :

ـ كلنا محظوظون بوجود شيلا .

وهذه هي السخرية عينها . . أحست شيلا بلذعها ، والتفت عيناها بعينيه ، بينما سالي تحضنها وتقول لها :

ـ أتمنى أن تكوني سعيدة أيضاً .

قالت شيلا :

ـ وأنا أتمنى هذا كذلك .

لكنها لم تكن تعتقد أن السعادة هي ما يفكر ميل أن يمنحها لها . سألت سالي ضاحكة ، بعد أن أصبح كل شيء على ما يرام بالنسبة لها :

ـ أيمكننا البقاء هنا الليلة ؟

قال ميل : بالطبع

ـ أيمكنني إبلاغ السيدة هارنس ؟

ـ ولمَ لا ؟

فتحت سالي الباب لتجد السيدة هارنس في الردهة تتشاغل بترتيب وعاء الزهور ، الذي لا يحتاج إلى ترتيب . . ولا يمكن لأحد أن يغادر المنزل ، دون

أن يلتقي بالسيدة هارنس ، ولا بد أنها شعرت بالاطمئنان عندما قابلتها سالي بابتسامة ، فقد دخلت حين نادتها سالي :

ـ تعالي وقابلي رجلي الشاب .

وجرى التعارف ، وأكدت المرأة أن ميتش أفضل بكثير من الرجال الذين عرفتهم سابقاً . . ولم يبد ميل أي احتجاج على موعد زواجهما القريب . . عانقت سالي ، ثم ميتش ، حين خرجا ليجدا كورب ويزفا له الخبر ، التفتت إلى شيلا تقول باعتذار :

ـ كنت قلقة جداً . . لهذا فتشت عن الرسالة . . لقد عانينا قديماً متاعب كثيرة من أجلها ، ولم أكن أعرف إلى أين ذهبت هذه المرة . . ولم أعرف أنه شقيقك . . لا بد أنه شاب طيب . . هل سيعيشان هنا ؟

قال ميل : لا .

وقالت شيلا :

ـ لدى ميتش منزل في لندن . . طابق علوي من منزل .

ولميل منزل في لندن لكن الفارق كبير بين المنزلين . . وقالت السيدة هارنس :

ـ من المؤسف أننا سنخسرك . . لقد بدأت أعتمد عليك .

سارع ميل يقول :

ـ شيلا ستبقى معنا هنا .

بدا على المرأة أنها سعدت لهذا الخبر ، وأمالت رأسها جانباً .

ـ أوه . . أنا مسرورة .

برقت عيناها تنتظر شرحاً إضافياً . . ثم قال ميل :

ـ لن تحتاج سالي إلى مرافقة بعد الآن . . لذلك ستكون شيلا سكرتيرتي الاجتماعية .

هزت شيلا كتفيها . لمعظم الناس ستكون عشيقة ميل التي تقيم معه ، مهما حاولت التشديد على الطبيعة العذرية لعلاقتهما . . وانكمش كتفاها حين وضع ذراعه حولهما . . الإشارة هذه أرضت السيدة هارنس ، فأحنت لهما رأسها وسألت :

ـ هل سيبقى الجميع للغداء ؟

قال ميل :

ـ العائلة فقط .

بعد أن أوصد الباب وراء السيدة هارتس ابتعدت شيلا عنه . كانت غاضبة من نفسها لأن لمسة ميل هزت أعماقها . . مجرد وضع يده على كتفها كفيل بأن يحركها . . ونظرت إليه تسأل :

ـ لماذا فعلت هذا؟

ـ من الأفضل لنا أن نتركها تظن أنك باقية لأننا نريد أن نبقى معاً . . بدلاً من الشرح لها أنك باقية كرهينة .

ـ لكن هذه الرهينة ، يمكنها أن ترحل .

ـ صحيح . . قادرة على الرحيل .

ـ ولن أتردد في طلب بعض الضمانات كي تجعل سالي ميتش سعيداً لأنها لعوب جداً . . على عكسه هو .

قال ميل بمرح :

ـ إنهما زوجان جميلان ولنأمل أن تكون السيدة هارتس محقة في أنه شاب طيب .

ـ أوه . . إنه طيب فعلاً .

صحيح أن لميتش لمسة حربة مجنونة ، إلا أنهما حين كانا صغيرين ، كان هو القائد دائماً . . وأكملت :

ـ لا تشغل بالك بشأن ميتش . . أنا من يمكن أن أدهشك . . فأنت لا تعرف ما حصلت عليه .

ضاقت حدقتا عينيه ، وأطبق فمه بشدة ، وكان تأثير هذا مخيفاً ، ثم قال :

ـ أنت التي لا تعرفين شيئاً . . أراك وقت الغداء .

وتركها .

لا شيء يمكنه أن يدهشه . . حتى سالي وميتش . . لقد عرف بهذا قبل أن يقول له أحد . وقبل أن يترك منزله ، فاجأها وتركها غير قادرة على الكلام . . وضحكت بصوت منخفض ضحكة توتر . . ثم دارت في الغرفة ، تقلب الوسائد تريد أن تهدأ .

بعد دقيقتين ، دخلت سالي لوحدها ، وقالت :

ـ ميتش وغانس يتحادثان عن السيارات . . كل شيء يسير بشكل جيد . . أليس كذلك؟

رددت شيلا :

ـ بشكل جيد .

وشعرت أن «العمل» لم يبدأ بعد ، والمشاكل لم تندفق بعد عليها . . رتبت وسادة ، ووضعتها على مؤخرة صوفا ، حيث جلست سالي تبتسم لها .

ـ ستأتين إلينا أحياناً؟ لكنني سعيدة لبقائك هنا . . أنت بالضبط ما يحتاجه ميل . ستقومين بأمور الضيافة أفضل مني بكثير . . لقد قلت لك إنه يُفتن بالسيدات الأنيقات الهادئات .

ـ لقد أظهرتني بشكل يتناسب مع هذا الدور بكل تأكيد .

بدا على سالي أنها تشعر بالرضا عن نفسها :

ـ ولقد نجحت . . أليس كذلك؟ وهذا صحيح . . أنت هادئة وأنيقة .

كانت واثقة من نفسها بحيث أن شيلا عندما قالت :

ـ لا . . أنا لست هكذا ، بل أبدو هكذا .

تلاشت ابتسامة سالي . . كانت شيلا لا زالت ترتدي ملابساً تعد في قمة الذوق . لكن ، في وقفتها أو في صوتها ما أقلق سالي . . فقالت بلهجة مختلفة :

ـ اسمعي . . أيمكن أن أقدم لك نصيحة جيدة عن ميل؟

ـ بالطبع .

مع أنها لم تعد باتباع النصيحة ، وقالت بتردد ، تختار كلماتها :

ـ أتذكرين ما قلته حول مواجهته؟ لا بأس في هذا عادة . . فهو يصغي دائماً إلى وجهة نظر الآخرين . . لكن إذا حصل بينكما خلاف حقيقي ، فيجب أن تبدأي بالاعتذار أولاً . . فهو لا يعرف أبداً معنى التنازل .

ضحكت شيلا :

ـ أصدقك . . لكن لو حصل خلاف حقيقي ، ستنفصل بعد أن تتوصل إلى اتفاق مشترك . . فهذه مجرد وظيفة . . ولن تتحول إلى علاقة حب .

ـ أوه! . . حسن جداً . . أعتقد أنك يجب أن تعرفي . . لكنني كنت أفكر أنكما متفقان إلى أبعد حد .

ـ أبداً . . لا شيء من هذا القبيل .

قالت آسفة :

ـ لكان هذا أمراً رائعاً . .

وفكرت شيلا : لا . . لن يكون . . بل سيكون كاجتماع الجنة والنار ولوقت قصير . . لا يمكن أن يستمر . . ولن أوقع نفسي تحت سلطة ميل ورايت .

رن جرس الهاتف ، ثم صمت ، وانفتح الباب ليدخل ميتش :

ـ المخابرة لك ، محرر الشائعات المفضل لك .

تأوهت سالي . . لكنها خرجت إلى الردهة والتقطت الهاتف بينما قال ميتش لشيلا :

ـ لقد أخبرنا بعض الرفاق بالأمس .

إذن لقد ذاع خبر زواج سالي ورايت من ميتشل سوليفان ، وتناهى صوت سالي الواضح إليهما . . وهي ترد على الأسئلة :

ـ أجل . . هذا صحيح . . في الخامس عشر من الشهر القادم . . أوه نعرف بعضنا منذ أجيال . . كنا نعيش تقريباً على مقربة من بعض . ميتش كان يعيش في بلبون كاسل ، المطل على الخليج بالقرب من منزلنا . . أجل . . القصر الذي احترق . وشيلا ، شقيقته ، كانت تقيم معنا هنا . . في الواقع ميل طلب منها البقاء هنا ، لكنني سأعود إلى لندن ، بالطبع .

ضحكت للسؤال التالي ، وأجابت :

ـ من الأفضل أن تسألها . . أليس كذلك ؟

مدت يدها لتعطي السماعة إلى شيلا ، التي هزت رأسها بعنف . . فتابعت سالي :

ـ لكن ليس الآن ، لأنها ليست هنا .

قالت شيلا :

ـ سأذهب لأساعد في إعداد الغداء .

وهي تمر بسالي ، كانت تقول :

ـ بالطبع ميل موافق . . إنه سعيد جداً .

أرادت السيدة هارنس وماري في المطبخ أن تعرفا أين سيتم الزفاف ،

وقالت السيدة هارنس وهي تهرس الثوم بقوة :

ـ لو كان سيجري هنا ، فلن يكون أمامنا الوقت الكافي .

تصورت شيلا ، العروسين يتسللان إلى مكتب تسجيل زواج برفقة بعض الأصدقاء ، ثم يعودان إلى شقتهما لإقامة حفلة صاخبة . . لكنها اعترفت أنها لا تعرف شيئاً .

ظل الهاتف يرن طيلة فترة الصباح ، معظمه لسالي وميتش . . خرج ميل إلى المصنع ، وانهمكت شيلا في عمل المطبخ وترتيب المنزل . وجلس الجميع للغداء في الواحدة والنصف . . وكان أول ما قالته سالي :

ـ الجميع يسأل أين سنعقد القران . . أيمكن أن نقيم حفل الاستقبال هنا ؟ أعني . . أن هذا منزلي ، أليس كذلك ؟ أحب أن أزف من منزلي ، وأعقد قراني في الكنيسة الصغيرة . .

التفتت بعينين متوسلتين إلى شقيقها :

ـ وأتمنى لو تكون هنا . . لا أريد أن يكون الحدث مثل المرة السابقة .

قالت شيلا قبل أن تستطيع منع نفسها :

ـ سيكون هناك فارق كبير . . الرجل . . ولا أظن أن بين زوجك السابق وميتش شيء مشترك .

قال ميل :

ـ أقيمها هنا بكل سرور . . لكن عليّ أن أكون في أمبركا في ذلك الوقت ، وميتشل سيكون كل الدعم الذي تحتاجين إليه .

ضحكت سالي ، وتبادل ميل وميتش نظرات رجالية ساخرة . وأدركت شيلا أن دفاعها عن ميتش لم يكن له لزوم . . فالرجلين يعرفان أن سالي تحاول تنفيذ ما تريد ، وهي تريد أن يحضر ميل حفل الزفاف ، لكن النظرة التي وجهتها إلى ميتش كانت نظرة محبة .

أعطاهما ميل حريّة مطلقة ، وهذا يعني أنه مستعد لدفع كل المصاريف . . وانتهى الجميع من تناول الغداء في حين بدأت سالي تضع لائحة بأسماء المدعوين ، وهي تقول :

ـ يمكن أن أوصل الدعوات بنفسي ، إذا اهتمت شيلا بترتيبات الحفلة . . سأسافر مع ميتش إلى لندن ، لأعود مجدداً إلى هنا قبل يومين من موعد

الزفاف . . سنحصل على إذن خاص، أليس كذلك؟ لذا لا حاجة لأن أعيش هنا .

تساءلت شيلا ما إذا كان ميل سيعترض، لكن كل ما قاله كان :

ـ أنا واثق أن شيلا قادرة على القيام بهذا، والسيدة هارتس تتوقع أن تستشيرها .

أنهى فنجان قهوته، ثم نظر إلى ساعته، وقال إنه سيعود الليلة حوالي التاسعة .

عندما خرج ابتسمت سالي وهي تقول :

ـ لم أظن أنني سأنجح بهذا . . ظننته سيقول : «ابقي هنا حتى الزفاف» .

حاولت تقليد صوت ميل العميق : «دعينا نراك تتصرفين كامرأة محترمة لمرة واحدة» ألم تظني هذا شيلا؟

أجاب ميتش :

ـ لا . . لا أظن هذا . . إنه يتركك تذهبين معي، لتكوني فكرة عما ستكون عليه حياتك معي .

ولمَ لا؟ فحتى بضعة أسابيع كافية لإظهار ما إذا كان هذا الحب قوياً بما يكفي، لارتباط يدوم العمر كله .

قالت سالي، حالمة :

ـ أعرف كيف ستكون . . ستكون حياة رائعة، وميل مسرور لأجلنا . أنت تعجبه ميتش . . وهو يعجبك أليس كذلك؟

أخذ ميتش يتلاعب بملعقة القهوة :

ـ بالطبع يعجبني . وأنا أحترمه . . لكنه لا يكن لي إعجاباً أو احتراماً . . أتمنى أن يحبني، فهو شخص صعب المراس .

والتفت إلى شيلا مكملاً :

ـ وسأكون أكثر سعادة لو تتركين منزله .

أجبرت نفسها على الابتسام :

ـ سمعت ما قاله . . لن يدفع لكما مصروفكما إذا لم أبقَ .

ـ سمعته . . وأسأل نفسي : لماذا هو مصمم على إبقائك هنا . . وماذا يتوقع مقابل ماله؟

أقيمت حفلة كبيرة تلك الليلة صدقةً . . فكل من سمع بعودة سالي إلى لندن جاء يريد سماع المزيد من التفاصيل عن الزفاف . كانت العلاقة سراً دفيناً، حتى أن الجميع اعتقد أن هذه إحدى نزوات سالي التي اشتهرت بها . . وبما أن الرجل شقيق شيلا سوليڤان وشيلا تعيش مع أسرة ورايت منذ ليلة الحريق، فقد استنتج الجميع أن شيلا هي التي وفقت بينهما .

كان لميتش سحره . . بدا وسيماً، ذكياً، مسلياً، وفخوراً يُظهر الحماية لسالي . . بدتا رائعين معاً، وسادت الابتسامات والمصافحات إلى أن ابتعد الزائرون عن العروسين . وما إن أصبح الجميع بعيدين عن مرمى السمع، وأخذوا يتحدثون فيما بينهم حتى انقلبوا إلى منتقدين ساخرين من مستقبل سالي وخطيبها .

وسمعت شيلا بعض التعليقات . . رجل قال : «سأعطي الزواج مهلة ستة أشهر» فتاة لاحظت وجود شيلا حاولت أن تكون لبقة «أجل، فأنا أعرف أن زواجها الأول دام هكذا» . . لكن ميتش يبدو رجلاً رائعاً» ردت شيلا ساخرة «شكراً لك» .

كانت مشغولة في تقديم الشراب والطعام الذي أعد بسرعة والذي كانت ترسله السيدة هارتس من المطبخ . . لقد كانت مصممة على إنجاح هذه الحفلة العفوية، لتظهر لميتش أنها باقية هنا لتؤدي عملاً حقيقياً . . فقد كادا يتشاجران حقيقة بعد الغداء حين سألها ماذا يتوقع مقابل ماله . . وجلست سالي بينهما صامتة بينما صاحت شيلا «إنه يريد مضيفة لأنه بحاجة إليها، وأنت ستأخذ سالي، وهو لا يريد الزواج» ورد عليها ميتش «أراهن على هذا . . إنه لا يتزوج النساء بل يعاشرهن، أليس كذلك؟ وأنا لا تعجبني فكرة بقاء أختي هنا» أطلقت شيلا صيحة ساخرة «ها! هذا كثير، من رجل يغيّر النساء على فراشه منذ كان له سقف بأويه!» وما كان يجب أن تقول هذا أمام سالي، إلا أن سالي تعرف بأمر دارلين وربما بأمر الفتيات الأخريات قبلها . . وقال ميتش ساخطاً «هذا أمر مختلف» وردت شيلا «حسناً . . سيكون مختلفاً . . أليس كذلك؟» لكن شيلا تعرف جيداً أن علاقاته تلك لم تكن جدية، وليس بينهن من تألمت لفراقه . . وأنه يخشى أن تتألم شيلا إذا ما عاشرت ميل . فسيحس بالذنب لأنها ستبقى هنا بسببه . . لذلك قال لها

«لست مضطرة لهذا من أجلنا. نستطيع تدبير أمرنا دون المصروف» فردت شيلا ببطء ونبرات صوتها تعبر عن السخط: «إنها وظيفة، مثل السكرتيرة أو الطباخة.. وإذا كنت تظن أن ميل سيغويني حال أن يختلي بي نصف ساعة، فمن الأفضل أن تقول له هذا.. وتقول له إنه إذا حاول مغازلتي فلن تسمح له، أليس كذلك؟»

ضحكت سالي «أوه.. ميتش!» مما جعل ميتش يبتسم ابتسامة جافة، فكرة أن يخيف هو ميل كانت سخيفة.. وجعلت شيلا تضحك بدورها، وهكذا انتهى بهم الأمر أن يهتزوا ثلاثتهم في مقاعدهم من شدة الضحك.. الليلة بدت شيلا المضيفة الحقيقية المهتمة براحة ضيوفها.

عندما كانت تضع الأطباق على طاولة جانبية، ورأسها محني، لا يلاحظها أحد.. في مكان قريب منها سمعت امرأة تقول بصوت خفيض: «بالطبع لا مال لديهما.. فالعجوز مات مفلساً.. والقصر لم يكن مؤمناً.. لهذا سيكون هذا الزواج أمر جيد لهما» وكانت تلمح طبعاً إلى أنهما اشتركا معاً في تدبير كل هذا، وانفجر غضب شيلا.

تخطت الرجل الذي حال بين المرأة وبين رؤيتها، لتجد أنها كانت ضيفة دائمة لبلبون كاسل في أيام عزه، قبل أن تحل بهم الظروف الصعبة.. وقالت بمرح:

ـ مرحباً سيدة سلايتون.. ظننت نفسي تعرفت إلى صوتك.. أتتمتعين بوقتك؟

ابتسمت ابتسامة باردة متسلية، وراقبت وجه السيدة سلايتون يحمر خجلاً. ثم ابتعدت عنها، وهي لا تزال تبتسم. لكنها من الداخل كانت ما زالت تحس بالغضب، مع أنها تستطيع فهم سبب ريبتهم.. فإعلان الزواج هذا كان صدمة لم يتوقعها أحد. وبعض هؤلاء الناس كان يظن نفسه موضع ثقة سالي، لكنها لم تبح بكلمة لأي واحد منهم حول ميتشل سوليشان.. والأمر مثير للارتياب، ولم تكن السيدة سلايتون الوحيدة التي ترتاب في أن تكون سالي قد وقعت في حبائل انتهازي آخر، صائد للثروات..

عادت شيلا إلى المطبخ، حيث كانت السيدة هارنس تحضر وجبة أخرى من الستدويشات الصغيرة. بينما كان كورب يقرأ جريدة المساء..

قالت السيدة هارنس:

ـ هل أدخل هذا بنفسي؟

ردت شيلا:

ـ أرجوك.. سأخرج لأتنشق بعض الهواء النقي.

أزاح كورب وجهه عن جريدته لسماع صوت شيلا.. وقال:

ـ لا ألومك.. أظن أن لدينا نصف سكان المنطقة هنا.

طوال بعد الظهر كانت سالي تدعو كل من يتصل بها هاتفياً لحضور الاحتفال الليلة.. وبدا أن الجميع استجاب للدعوة. وقالت شيلا:

ـ البعض يعرف ميتش، ولا يمكن أن يكونوا قد جاءوا ليتعرفوا عليه.

ضحكت السيدة هارنس:

ـ ربما جاءوا ليلقوا نظرة على السيد.

ـ سيكون هنا عما قريب.. قال إنه سيحضر حوالي التاسعة. أيظنون أنه سيمنع الزواج؟

ضحكت السيدة مرة أخرى:

ـ ربما ينتظرون أن يرواردة فعله قبل أن يقدموا الهدايا.

التقطت طبق الستدويشات.. وابتسمت شيلا لها لأنها كانت تلقي نكتتها وتتمتع بها.. لكن سالي كانت مشهورة باختيار رجال غير مناسبين، ولطالما وضع ميل شروطه أكثر من مرة.. على الأرجح، سيبتهج بعض الزوار حين يأتي معه بشيء من الأستياء إلى جو الاحتفال.. فهذا سيعطيهم شيئاً يتندرون به ويحيكون الشائعات حوله عندما يغادرون.. وقد بدا أنهم لن يغادروا المكان قبل وصوله.

كان هناك صفوف من السيارات تصطف في المدخل.. وما إن خرجت لتشير مبتعدة سمعت شيلا أصوات عدد آخر من الواصلين، وأكملت الطريق حتى آخر الحديقة دون أن تسلك الطريق المؤدي إلى البحر عبر السلم.. كان هناك مقعد خشبي صغير، وسياج أبيض منخفض، علامة تحذير على وجود المنحدر الصخري.

بكل تأكيد، لا يوجد شيء في العالم أجمل من البحر ليلاً.. ان مجرد النظر إلى البحر في ليلة صيفية كهذه كان كافياً لإدخال السكينة إلى قلب

الإنسان . . ما من أحد سيشعر بغيابها خلال هذه الفترة القصيرة . . وجلست ، تميل إلى الأمام ، تتكىء بذراعيها وذقنها على السياج . . تتخيل نفسها طافية فوق المياه المتألقة .

استغرقت في التفكير . . وفجأة سمعت ميل ينادي . . كانت لا تزال تحس بالاستياء والانزعاج . . ومما زاد في توترها سماع صوته يصرخ :

ـ إيلا . . أين أنت ؟

لكنه لم يكن يصرخ . . فالليل ساكن والصوت يعلو .

قالت : أنا هنا .

لم تقف ، لأنها تحتاج إلى الراحة . . لا بد أنه دخل المنزل وسأل عن المضيفة ، ولم يجدها ، فجاء يسأل عنها ، ولا بد أنه وجدها قبل أن يناديها فقد اقترب من المقعد على الفور وجلس إلى جانبها يسألها :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ـ أتنفس قليلاً . . إنه جمع كبير هناك .

لم تكن ترى تعابير وجهه ، لكنه ضحك ، إذن فهو لم يأت إلى هنا ليتذمر . . وقال موافقاً :

ـ المكان مليء . كم شخصاً دعت ؟

ـ دعت كل من اتصل بها بعد الظهر ، والهاتف لم يتوقف عن الرنين .

ـ أتمانعين أن أدخن ؟

ـ بالطبع لا .

أخرج سيكاراً من جيبه ، أشعله ، وسحب أنفاساً منه . . حين اختلطت رائحته بعطر الزهور ، ورائحة البحر ، تنفست شيلا عميقاً ، فسألها ميل :

ـ لمَ التنهد ؟ هل تطفلت عليك ؟

ـ لم أكن أتنهد .

لم يكن يتطفل . . مع أنها قبل بضع لحظات كانت تحب أن تبقى وحدها . . وهو الآن يجلس هنا ، ولا تمانع أن يكون إلى جانبها . وقالت :

ـ أنا أتنشق الهواء . . البحر والحديقة والسيكار . . إنه مزيج ساحر غامض . . لو استطاع أحد أن يضع هذا المزيج في زجاجات . . فسيحصل على عطر مثير . .

وقال لها :

ـ وعطر شعرك أيضاً .

عادة ما كان الهواء يتحرك بخفة في المكان محدثاً تياراً دائماً ، على حافة الصخور المرتفعة . . لكنه الليلة لم يحدث أثراً أكثر من تحريك موجات شعرها الكثيف . حين سمعته ، توقعت أن يمد يده ليلمسه . . خيالها كان حياً جداً حتى أنها أحست بالضغط على جبهتها .

تحركت باضطراب ، مع أنه لم يتحرك ، وبدأت تقول بسرعة :

ـ لو أصدرت سالي دعوات كهذه في لندن لملأت شقة ميتش مرتين . . ليس لأن الشقة صغيرة إلى هذا الحد . . فهو محظوظ فعلاً ، لديه الطابق الأعلى من البناء كله ، وهو منزل واسع .

ـ يبدو لي ساحراً .

لكنها شكت أنه يعني ما يقول . وقالت :

ـ تظن السيدة هارتس أن الجميع جاء ليراك .

ـ ولماذا أنا ؟

ـ ليروا ردة فعلك . . فالإعلان كان مفاجئاً . . وإذا أبديت عدم الموافقة ، فسيكون هذا مثير للاهتمام أكثر .

ابتسم :

ـ حسناً . . لطالما خيبت أمل ضيوفي . . لكن حتى لو لم أوافق ، فلن يعرفوا .

لقد استخدم كلمة «حتى لو» مما يعني أنه أقل عدائية نحو ميتش مما كان في البداية .

كانت شيلا تهم بالعودة إلى المنزل . . لكنها الآن أصبحت مترددة . المكان هادىء هنا والصمت بينهما كان مريحاً . . أحست أنها قادرة على الجلوس هكذا هادئة راضية لساعات دون الاضطرار إلى التفتيش عن شيء تقوله .

كانت الأصوات تتعالى من المنزل فتصل إليهما . . لكن صوت البحر كان كالموسيقى المنوّمة . . ومع أن ميل لم يلمسها ، فرفقته ووجوده كانا كذراع لطيفة غريبة حولها .

ضوء القمر كان يبدو عبر الخليج وكأنه يلون كل شيء بلون فضي براق . . كان يشع فوق حجارة القصر . . وسألته :

ـ أتريد القصر ؟ هل ستشتريه؟

ـ أجل .

أراحها هذا . فهو يعني أنها ستحصل على شيء ما ، ليس منزلاً ، بل القليل من المال . . وقالت :

ـ أنا سعيدة أنه لن يتحول إلى أطلال . . لكنه سيتغير تماماً من الداخل . . أليس كذلك؟

ـ تقريباً . . لكن ليس عليك التخلي عنه كله .

سألت :

ـ ماذا تعني؟

ـ بإمكانك استبقاء شقة لك ، ربما تحتوي على غرفة استقبال صغيرة . . فهذه لم تحترق تماماً . وبالإمكان إصلاحها دون تعب .

اغرورقت عيناها بالدموع ، وكأنه قدم لها هدية رائعة غير متوقعة ، فالقصر كان دائماً جزء من حياتها . . كانت تريد أن تسافر ، أن تجوب العالم . . لكن معرفتها بأنها ستعود دائماً إلى القصر ، تعني لها الكثير . غرفة الاستقبال الصغيرة ، كانت في الواقع غرفة كبيرة ، ونجت تقريباً من الحريق . وبإمكانها الاستعاضة عن الأثاث باخر ، أو تختار بعضاً مما سلم منه . وبدأت تخطط . . وقال لها :

ـ حسناً . . ما رأيك؟

ـ أوه . . أجل ! لم أفكر يوماً أن أسألك إذا كنت أستطيع الاحتفاظ بجزء منه .

ولم تفكر كذلك أنها قادرة على إملاء شروط . . إنه المشتري الأوحد ، وخطط إعادة البناء شملت كل المبنى . . وقالت له :

ـ أحب أن أحتفظ بها كما كانت . . كل شيء منسخ بالطبع ، ولا أعرف شيئاً عما جرى لورق الجدران . . وأثاثها . .

ضحك لحماستها المتدفقة :

ـ سنصلح لك كل شيء .

ـ شكراً لك

ـ والآن ، الأفضل أن نعود .

حين دخل ميل ورايت الغرفة مع شيلا ، أعطى دخولهما الضيوف شيئاً إضافياً يفكرون به . . الأخبار كانت قد انتشرت بأن شيلا ستبقى هنا ، ولاحظ الجميع يد ميل على ذراعها . . إذن هذا هو الحال . . لا عجب أنه لم يعترض على مينشل سوليفان!

إحدى الفتيات ، أخذت على عاتقها مهمة إنذار شيلا بأن ميل لا زال يقابل فيونا ايمز . . وهي التي قالت منذ قليل إن مينش شاب رائع . . ولربما ظنت أن هذا نوع من التعبير عن تعاطفها معهم أيضاً . . كانت بين آخر المغادرين ، وكانت شيلا في الخارج تساعد على إرشاد السيارات للخروج ، حين تقدمت منها جسيكا ، تقول همساً :

ـ ميل . . وفيونا . . إذا كنت ستبقين هنا كصديقة مقيمة فأظنك يجب أن تعرفي .

ردت شيلا :

ـ أنا لست . .

لكنها اضطرت أن تقطع كلامها لتصيح بقائد سيارة يكاد يصدم مقدمة سيارة أخرى :

ـ إلى اليسار بسرعة!

ثم التفتت إلى جسيكا :

ـ هذا ليس من شأني .

ـ لا؟ حسناً . . ستكونين حيث يستطيع أن يجدك ، أليس كذلك؟ ولن يحتاج للبحث عنك .

سالي والسيدة هارتس ، حاولتا إقناع شيلا أن لا تزعج نفسها بتنظيف المكان . . سالي كانت تتذمر . . كان يوماً متعباً لها . . حين شاهدت شيلا تضع الكؤوس في الصينية قالت :

ـ أوه . . دعيها . . كنت واقفة على قدميك طوال الليل .

أضافت السيدة هارتس :

ـ أجل . . دعيها واصعدي . . لن يأخذ هذا مني أكثر من نصف ساعة في

الصباح مع وجود ساري.

احتجت شيلا:

- لكنني لست متعبة.. سأضعها في غسالة الصحون.. اذهبي إلى النوم، فأنت ستستيقظين قبلي بكثير.

لم يكن هناك أثر لميل.. وتمنى ميتش وسالي ليلة سعيدة لها وصعدا إلى غرفتيهما المنفصلتين.. وبعد أن تأكدت السيدة هارتس أن كل شيء على ما يرام في غرفة الفطور استعداداً للصباح ذهبت لتنضم إلى كورب الذي كان يغط في نومه العميق.

لم يكن الوقت متأخراً، فلم يحل بعد منتصف الليل، وشيلا متأكدة أنها لن تنام بسهولة.. ولم تكن ترغب في أن تأخذ حبوباً منومة مرة أخرى.. لكن أعصابها كانت مشدودة كرقاص الساعة.

لم يكن هناك الكثير من العمل هنا في الواقع.. مجرد كؤوس ومنافض سيكارة تحملها إلى المطبخ، وبضع كراس تعاد إلى مكانها، تحركت بسرعة، تنفست بخفة.. حين لمحت نفسها في المرآة وقفت لتحدق.. لم تدرك مدى غضبها إلى أن رأت كيف كانت عابسة وهي لوحدها الآن.

جسيكا كانت قد أغضبتها حتى أنها أرادت الصراخ.. ليس لأنها أخبرتها عن ميل وفيونا بالطبع، لكن للطريقة الباردة التي فكرت فيها بكل ثقة أن شيلا هي مجرد عشيقة أخرى لميل.. كانت طريقة مهينة جداً.. لهذا تحس شيلا الآن بحاجتها إلى رمي شيء ثقيل على الجدار بقوة، أو تحطيم

ابتسم لها:

- ألست عائدة لسماع أغنيتك المفضلة مجدداً؟

أجبرت نفسها على الضحك:

- لقد انطلق الصوت صارخاً في المرة السابقة.. أليس كذلك؟ لكنني حقاً لم أقصد بها أية رسالة.

- أتحبين شوبان؟

أصغت لحظات وهزت رأسها:

- أجل.. لكنني أفضل الذهاب إلى النوم.. فالجميع فعل هذا.

وقف عن كرسيه، وبدا لها أن جدران الغرفة تطبق عليها.. أرادت أن تدفعها لتبعدها عنها.. أن تدفعه هو لو تقدم منها وسألها:

- هل لي أن آجيء إلى غرفتك الليلة؟

شيء ما دوى في رأسها.

تعبير الإطاحة برأسه تعبير صحيح.. وأخذ الغضب المكبوت ينطلق منفجراً من جسدها.. واندفعت الكلمات عبر صمام الأمان.. لم تقف لتفكر بما تقول، إذ لا وقت لديها للتفكير.. كانت الكلمات تتدافع، تلحق ببعضها دون تنفس بينها حتى أنها بدت لنفسها أنها تستمع ولا تتكلم.

لا.. لن يستطيع الدخول إلى غرفتها.. فهذا ليس جزءاً من خدماتها.. وإذا كان هذا شرطاً لشراء القصر، والإبقاء على مصروف سالي، ونسيان أن ميتش اقترض من مال عائلته فبإمكانها القول له، ما يمكنه أن يفعل باتفاقيته

ـ يبدو لي مبتهجاً كملك متوحش لعين . . أليس كذلك؟ يا لهذا الهراء! لا يحق لهم أن يقرنونك به هكذا.

وابتسمت شيلا ابتسامة متشنجة.

ـ أوه . . لا تهتم بهم . . سالي تعرضت لمثل هذه الشائعات من قبل، أليس كذلك؟ فلا تفتعل ضجة حولها!

قالت سالي:

ـ هذا ما قلته له.

طوت الجريدة، وألقتها جانباً . . فسأل مينش:

ـ كم تنوين البقاء هنا؟

ـ حتى الزواج على أي حال . . فعلى أحدهم أن يهتم بالأمور هنا.

بعد هذا تحولوا للحديث عن الزفاف . . وما إن انتهى الفطور، حتى ودع مينش وسالي الجميع، وعانقا شيلا، وكأنهما غير مطمئنين لتركها وحدها . . وأدار مينش محرك السيارة، وهو لا يزال يذكّرها أن هناك غرفة جاهزة لها معهم.

بقيت تلوّح لهما إلى أن اختفت السيارة عند آخر الطريق الداخلية. حين عادت إلى المنزل، كان الهاتف يرن . . كانت قد ردت على اتصالين من أشخاص قرأوا المقال . . حتى أنها سُئلت ما إذا كان الزفاف سيكون مزدوجاً . . وقالت محتجة:

ـ ليس هناك كلمة حقيقة في المقال . . فسأعود لأعيش في القصر بعد إصلاحه . . قال لي ميل إن بإمكاني البقاء في منزله لمساعدة السيدة هارتس كمدبرة منزل حتى ذلك الحين. لكن لا شيء هناك بيني وبينه . . لا شيء إطلاقاً.

هذه المرة كانت المخابرة من زميلة قديمة لها منذ أيام الدراسة، كتبت لها يوم موت العم جايسون، تدعوها للإقامة عندها. ومرة أخرى شرحت لها شيلا أن الإشاعة مجرد وهم، فلا علاقة لها مع المليونير ميل.

المخابرة التالية كانت من مراسل صحفي آخر، قالت له أيضاً إنها وميل صديقان، لا أكثر ولا أقل . . وقررت أنها لا تستطيع الاستمرار هكذا طوال النهار . . وقالت للسيدة هارتس:

ـ هل تمانعين لو تغيبت لبضع ساعات؟ أتمانعين لو تركتك تردين على الهاتف؟

ردت السيدة هارتس متجهمة:

ـ أتركيهم لي . . فأنا أعرف ما أقوله لهم، كائناً من يكونون.

كانت قد اكتسبت خبرة في كيفية الرد بخشونة على الهاتف عندما كانت سالي تثير المشاكل . . كانت تقول «لا تعليق» وتساءلت شيلا إذا كان هذا لن يجعل الجميع يقتنعون أن هناك شيئاً ما بالفعل.

صعدت إلى سيارتها تقودها باتجاه الطريق الساحلي، لتقف في متنجع شعبي وتختلط بالناس . . اشترت لنفسها ثياباً جديدة، كلها أرخص ثمناً من ذلك الصنف الذي اختارته لها سالي . . اكتفت في البداية بشراء بنطلون جينز، وتنورة قطنية وعدة قمصان، وفستاناً أحمر براقاً، فهي تريد التمرد على الألوان القاتمة التي اختارتها سالي، وهي تأخذ بعين الاعتبار رغبات ميل لتفتنه بها. إنه يفضل الألوان الهادئة الأنيقة، لكنها سترتدي الثياب لترضي نفسها من الآن وصاعداً.

وفي فترة ما بعد الظهيرة ذهبت لزيارة القصر . . كان عمال الهدم ما زالوا يعملون، وتقدم منها مراقب العمل حين توقفت السيارة، كما فعل تماماً منذ يومين . . لكنه هذه المرة قال:

ـ قرأنا ما نُشر عن شقيقك والآنسة ورايت . . وعنك وعن «المعلم» . .

واتسعت بسمته . . فقالت:

ـ أجل . . الجميع مسرور لأجلهما . . أريد أن ألقي نظرة على إحدى الغرف.

دخلت عبر الردهة إلى غرفة الجلوس الصغيرة . . كان هناك حجرة ملابس متصلة بشكل عملي بالغرفة مما يجعل تحويلها إلى مطبخ أمراً في غاية السهولة . . كانت تلك الغرفة متسخة جداً بدخان الحريق الذي اختلط بالغبار المتطاير من عملية الهدم، لكن يمكن إعادتها تقريباً كما كانت.

خرجت تبتسم، وأحست أن كل العبون مصوبة عليها . . حين كانت مجرد الآنسة سوليفان كان الجميع يحس بالإشفاق عليها، وبدت كفتاة مسكينة لطيفة، وكان الحريق يبدو أمراً مؤسفاً، لكن منذ قرأوا صحف

الصباح، أصبحت أكثر تألقاً وشهرة.

أملت أن يعود ميل متأخراً كي لا تضطر إلى رؤيته كثيراً. فمواجهته مرة ثانية، ستكون أمراً محرجاً لها بعدما حدث ليلة أمس، حتى دون أن تنشر الصحف هذه القصة المفتعلة.

لكن السيدة هارتس كانت تتوقع حضوره للعشاء، هكذا اضطرت شيلا إلى تغيير الجينز وارتداء فستانها الأحمر، ونزلت لتساعد السيدة في المطبخ.. ثم جلست في غرفة الجلوس، تراجع لائحة بأسماء الأشخاص الذين حاولوا الاتصال بها اليوم. وإذا بميل يدخل.

حبست أنفاسها للحظات، ثم استرخت، بعد أن جلس واسترخى بدوره. أسند ظهره على المقعد الكبير، وأطلق تنهيدة رضى، وابتسم لها:

ـ هل سافرا؟

ـ بعد الفطور مباشرة.

لو أن الناس كانوا يتصلون بها بخصوص المقال، فلا بد أنهم كانوا يتصلون به أيضاً، وعليها أن تعرف ماذا سيفعل:

ـ رأيت الصحيفة، لا شك؟

ـ وهل تقلقك؟

ـ حسناً.. لا.. ليس كثيراً. لكن ألا يجب إنكار الخبر؟ ألن تطلب إليهم نشر تصحيح أو ما يشابه؟

ـ من الأفضل بكثير ترك الأمر كما هو.. لا تثيريه في زاوية الإشاعات في الصحف. ودعيهم ينشرون ما يريدون، فلا أحد سيذكر ماذا جرى في الأسبوع المقبل.

ـ حسن جداً.. لديك خبرة أكثر مني في هذه الأمور.

ثم تذكرت أن معظم خبرته كانت مستمدة من قصص نشرت عن سالي، وقد لا يرغب بتذكرها.. لكنها والعم جايسون كانا يقرءانها، ويظنان أنها مزحة.. وكان يقول حين يرى صورة سالي تبتسم: ماذا فعلت الدمية الصينية الآن؟ آخر مرة، مع الشاب الإسباني، كانت سالي متورطة مع ميتش.. وما كان العم جايسون سيصدق هذا.. كما أنه لن يصدق بأن شيلا هنا، تعيش، مع ميل ورايت.. كان لا بد أن يخاف عليها، لأن نسلط «القرصان» كان

بخيفه.

كان يقول عنه: إنه ليس بالسيد المهذب! لكن ميل ورايت لديه الأسلوب المميز والقوة.. ومن الصعب إيجاد رجل أقوى منه تأثيراً، إذا لم يكن مستحيلاً.. وشيلا معجبة به، وهما صديقان. وهذا أفضل.. لأنها لن تستطيع أبداً مجاراة فيونا وبقية النساء.

قالت:

ـ بالنسبة لليلة أمس.. أنا آسفة لانفجاري في وجهك.

هز كتفيه:

ـ لن يحدث هذا مرة ثانية.

وصدقته.. لا بد أنه ظنها ساذجة، إلى حد كبير.. لكن شراسة ردها أظهرت كم هي خائفة من تركه يقترب منها.. ومن غير المحتمل أن يخاطر ثانية ليتعرض لنوبة هستيرية أخرى.. وهي آمنة بما يكفي الآن وما إن ينتهي الزفاف سنبدأ بالتفتيش عن مكان آخر تعيش فيه إلى أن تجهز شقتها في القصر.

في هذه الأثناء، ستمنحه مشاعرها دون قيد أو شرط. كان التحضير لحفل الزفاف الذي سيقام بعد أربعة أسابيع مهمةً صعبة.. وسيقام الحفل في المنزل والحديقة.. وبدا من المؤسف أن تفوّت سالي متعة الإعداد لهذه الليلة.. لكنها مصممة على أن تعود قبل موعد الزفاف بيوم واحد.

كانت وميتش على اتصال دائم ببعضهما.. كان يعمل قرب منزله وكانت سالي تخرج مع فريق العمل، وبدت دائماً سعيدة حين تتحدث إلى شيلا، مدفوعة برغبة لمعرفة ما يتم تحضيره للاحتفال.. معظم المدعوين ردوا على سالي على عنوان ميتش. ومع وصول الموافقة، كانت سالي تخبر شيلا لتضع إشارة على الأسماء في اللائحة.. ويجب إضافة اسم فيونا، فهو لم يكن على اللائحة الأصلية.. وقالت سالي:

ـ لقد أرسلت لنا هدية، صينية فضة رائعة، لذا يجب أن ندعوها.

ـ بالطبع.

وكتبت شيلا الاسم بقساوة «فيونا آيمز» حتى أن طرف القلم انغرز في الورقة.. وسألت سالي:

ـ على فكرة.. هل حضرت إلى المنزل؟

ردت شيلا بعفوية:

ـ لا.. لكن شخصاً ما ذكر لي أنها وميل عادا لبعضهما.

ـ صحيح.

وكأنها تعرف هذا.. فضحكت شيلا:

ـ هذا عظيم بالنسبة لي.

قالت سالي:

ـ طوني يرسل لك حبه.. الآن وقد عرفته أظنه شاباً رائعاً.. لا زال ينتظر مجيئك إلى هنا.

وهذا ما ستفعله، في العطلات على الأقل، وقالت بخفة:

ـ أبلغيه حبي.

بعد هذا اتصل طوني عدة مرات.. وكانا يتبادلان الغزل أثناء الحديث.

المجنونة التي قصها عليها.. كانت تشعر بالحياة وهو في المنزل.. وفي الليالي التي كان يغيب فيها، والتي ربما كانت من حصة فيونا، كانت تشعر بأنها ليال طويلة مخيفة.

لم تكن تغار من فيونا.. فميل سيصبح كأخ آخر لها بعد الخامس عشر.. تنتظر بشوق أن تعود إلى سكنى القصر مجدداً.. لكن، في الواقع، كانت هذه أيام طيبة تقضيها هنا معه، وتمنت لو أنه يبقى ليحضر حفل الزفاف.

قالت سالي لشيلا بعد ان أجرت [redacted] معه قبل يوم من رحيله إلى أميركا:

ـ لا مجال.. العمل أولاً..

وبدت مقتنعة دون مرارة، وقالت شيلا:

ـ أمر مؤسف.. على أي حال، سيكون زفافاً رائعاً.

[redacted] رائعاً، رغم أن الوقت المتبقي على

ثم يعود مجدداً إلى أن قال كورب:

ـ من الأفضل إطفاؤه..

تماماً كما قال العم جايسون.

حين تمنت لهما ليلة سعيدة، سألتها السيدة هارنس:

ـ هل ستكونين على ما يرام؟

ردت:

ـ بالطبع.

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل، ولا يمكنها إبقاءهما مستيقظين أكثر من هذا، وليس من المؤكد أن تنفجر العاصفة عما قريب.

لكنها استلقت في الفراش تصغي إلى الرعد.. تسمعه من بعيد، فيتصاعد ذعرها. إلى أن ابتلعت قرصين متومين من الزجاجة الصغيرة التي كانت لا تزال على الطاولة قرب السرير. من الأفضل أن تخدر نفسها، كي لا تشعر بشيء حتى الصباح. وسرعان ما داهمها نوم ثقيل.

أفاقت من نومها مخنوقة مذعورة وسط لمعان البرق الشديد.. ورعب كابوس ليلي يغمرها.. لا شيء حقيقي.. كل شيء كان ضبابياً ويتحرك من حولها ببطء.. لكنها كانت تجلس مستوية، تترنح في قلب العاصفة.. البرق والرعد والدخان والنار من حولها.. وعبر الدخان جاءها ميل..

ـ لا بأس عليك.. لا بأس.

حاولت أن تقول:

ـ نحن وسط النار!

التفت ذراعاه حولها قائلاً: لا..

وأغمضت عينيها متعلقة به، وعاد إليها الدفء والأمان ثانية..

وانتبهت.. عرفت أنها لم تكن تحلم.. العاصفة تلف المكان، لكنها في الفراش، ومعها ميل.. وقالت: أرجوك ضمني بحب! ثم قرع أحدهم الباب فحاولت فتح جفنيها لكنهما كانا ثقيلين.

كان في الممر ضوء، وانعكاس لصورة كتفي ميل العريضتين في الباب، وسمعت السيدة هارنس تقول باضطراب:

ـ أوه.. أنا آسفة.. ظننت.. أعني، لقد جئتها بفنجان شاي.. فلتنتها

قد تكون..

قال ميل:

ـ شكراً لك.

لم تشعر شيلا بالحرج أبداً.. كانت صاحية الآن لكنه لا زال كالحلم. كانت تبتسم، أطرافها ناعمة مسترخية، وأرادت، أرادت أن يلفها بذراعيه القويين وجسده الضخم.. مدت ذراعيها له، فوضع الفنجان والصحن على الطاولة قرب السرير، وجاء إليها، وسمعته:

ـ يا حبيبتي.. يا حبيبتي المسكينة الصغيرة!

وضمته عانقها بلطف.

في الصباح التالي لم تكن واثقة من هذا.. لم تكن واثقة من أي شيء أبداً في الصباح.. ليلة أمس كانت ضبابية غامضة.. لكنها تستطيع أن تذكر ما يكفي منها ليتورد خداها.. عرفت أن ميل كان هنا، إنها واثقة من هذا.. لكنها لا تعرف متى خرج. إنها الآن وحدها في السرير الكبير.. وحان وقت الاستيقاظ.. وعبر النافذة كانت السماء تبدو رمادية، إذن فقد انتهت العاصفة.

كان هناك فنجاناً فارغاً في صحن على الطاولة قرب السرير.. لقد أحضرت السيدة هارنس لها الشاي وأعطته لميل، ولا بد أنها شربته.. ومن الأفضل لها أن تبدأ في تفسير ما جرى.. وجدت السيدة هارنس في المطبخ وحدها، وقالت بهدوء:

ـ أريد أن أعتذر بشأن ليلة أمس.. أخذت حبوباً منومة مع ذلك سببت العاصفة لي كابوساً.. ولا بد أنني أزعجت البيت كله، كما يبدو.

ابتسمت السيدة هارنس، واحمر وجه شيلا أكثر.. فلا بد أن السيدة هارنس فسرت وجود ميل في غرفتها بطريقتها وكونت أفكارها الخاصة عنهما.. والحديث عن الكوابيس لن يغيّر تلك الأفكار.

ـ إنه في طريقه إلى المطار الآن.. البيت لا يبدو عادياً من دونه.

بإمكان شيلا أن تدعي، ولو لنفسها، أنها لن تفتقد ميل.. بينما السيدة هارنس تتكلم، أحست إحساساً حاداً بالوحشة لأنه لم يودعها، وراودها شعور بالغثيان لأنه سافر.

كانت تفتقد لميل طوال الوقت.. هكذا كان يترسخ في ذهنها مرات ومرات كل يوم، كم أصبح مهماً بالنسبة لها. هناك فيونا بالطبع، وفيونا منافسة ساحرة.. لكن ربما لم يكن متعلقاً إلى تلك الدرجة بالنساء الباردات الأنيقات. فقد أبدى إعجابه بالفستان الأحمر، وتمتع بصحبة شيلا.. وضحك معها، وأعجبته.. صحيح أنها لم تقع في حبه إلى حد الولع.. لكن مجرد التفكير بأنه يحبها يجعل قلبها يقفز.. حين يعود.. ستكون هنا، وربما سينطلقان من حيث انتهيا ليلة أمس.. مهما كان ما حصل ليلة أمس..

وصلت سالي مع ميتش قبل موعد الزفاف بيوم واحد.. كما جاء فريق ميتش التلفزيوني، حيتهم شيلا وهي تصرخ فرحةً.. وعانقها طوني بشوق، ولاحظت أن السيدة هارنس رفعت حاجبيها تعجباً من ذلك. بعد ذلك انطلقت تقبل الجميع كي تظهر لها أن لا شيء مميز في طوني.

اليوم هو يوم اللمسات الأخيرة.. ترتيبات الزهور، تحضير طاولات الطعام.. كل من حولها صاخب ضاحك وستكون سالي أجمل عروس على الإطلاق.

جاءت سالي بثوب عرسها معها.. فستان حريري بلون الكريم:

ـ يجب أن يكون لدي شيء أرتديه فيما بعد، أليس كذلك؟ أعني لا فائدة من انتقاء شيء جنوني لن أرتديه مرة أخرى.

أرته لشيلا في غرفة نومها، وهي تملس قماشه قالت مسبلة العينين:

ـ أفكر بسام كثيراً وكم أن ميتش مختلف عنه، وكم أنا محظوظة.. إنه طيب معي، وسأكون طيبة معه.. أعدك.

ردت شيلا:

ـ أنا واثقة من هذا.

وبطريقة ما، بدا هذا الأمر ممكناً جداً. وأضافت:

ـ ارتدي الفستان.. ودعيني أراك فيه.

بدت سالي جميلة فاتنة للغاية، وهي لا شك ستبدو كذلك حتى ولو اضطرت لارتداء خرقة..

اتصل ميل ذلك المساء. ولم يكن قد اتصل بالمنزل قبل الآن. لكنه طلب التحدث إلى سالي وميتش، وتمنى لهما زواجاً سعيداً. ثم تحدث

لشيلا.. ولم تعرف بالضبط إذا ما كان هو الذي طلبها، لكن سالي أعطتها السماعة، وقالت شيلا بمرح:

ـ آلو.. نحن بخير هنا.. لا مشكلة.

رد:

ـ أنا واثق من هذا.. لكن لا ترهقي نفسك.

لم يقل لها شيئاً محدداً. لكن صوته جعل الأشياء تبدو غريبة لها، حتى وهي ترد عليه بطلاقة، أحست بأن الكلمات تتجمد في فمها، واستمرت تفكر كم من الرائع لو أنه استخدم الآن كلمة تحبب.. أن يدعوها ربما بحبيبتي، كما ظنت أنها سمعته يناديها حين كانت العاصفة تهدر.. لكنه لم يقل شيئاً بل أكمل:

ـ وداعاً إيلا..

لم يكن أحد آخر يستخدم اسم التودد هذا، لكنه لا يعرف. وهو لا يقصد شيئاً معيناً باستخدامه.. وتساءلت ما إذا كان يتصل دائماً بفيونا، وكيف يتحدث معها، وتمنت لو أن شيئاً يعرقل مجيء فيونا في الغد.

سألها ميتش وهي تضع السماعة من يدها:

ـ هل أنت بخير؟

أدارت له وجهاً خلا من التعابير:

ـ طبعاً.. لماذا؟

ـ تبدين قلقة.

ابتسمت لتؤكد كلامها: لست قلقة.

لا تستطيع أن تعترف بأن اسم فيونا في كل مرة يتردد أمامها يجعلها تتنهد بعمق.

في اليوم التالي، كانت مراسم الزفاف على وشك أن تنتهي عندما أغمضت شيلا عينيها لتمنع الدموع من التساقط ثم التفتت لترى فيونا واقفة في الجهة المقابلة من الكنيسة، وعندما رأتها فيونا ابتسمت، ولسبب ما أحست شيلا بالارتعاش.. كانت ابتسامة من النوع الذي يبعث الرعشة، وكان لدى شيلا شعور أن فيونا مستعدة لإفساد نهارها لو استطاعت.. هكذا ابتعدت عن طريق الآنسة أيمز حين عاد الضيوف إلى المنزل.

كانت هناك مجموعة من الأشخاص الذين يحولون بينهما، وكانت شيلا تبتعد بسرعة عندما ترى فيونا قادمة نحوها.. وكان حفل الاستقبال ناجحاً جداً.. والطقس رائعاً، ومائدة المأكولات والحلوى ممتازة، ويبدأ أن الجميع يستمتع بوقته.

عانقت سالي شيلا والسيدة هارتس قبل أن تنطلق برفقة ميتش بعيداً.

قالت قبل أن تصعد السيارة:

ـ سأتصل بميل الليلة وأخبره أية حفلة رائعة فاتته.

ثم نادت من الداخل عبر النافذة:

ـ أم ستتصلين أنت به؟

ـ أجل.. سأفعل.

وألقت سالي رأسها باطمئنان على كتف ميتش:

ـ لن أزعج نفسي بذلك إذن.. سأراكم بعد أسبوع.

وانطلق العروسان.

بينما كان المدعوون يتجهون من الطريق الداخلية، نحو المنزل والحديقة، أحست شيلا يد تمسك بذراعها، وقالت فيونا:

ـ لم تتح لي فرصة الكلام معك.

كانت تمسكها بقوة، ولا مجال للإفلات منها، لذا كان الشيء الوحيد أمامها هو الاستمرار في السير وتصنع الابتسام.. كانت فيونا تبتسم كذلك، وتتحدث بصوت زائف الحلاوة:

ـ لقد عملت جاهدة أليس كذلك؟ أنا واثقة أن ميل سيكون مبتهجاً معك.

وكررت «مبتهج» بتركيز أكبر، ثم أكملت:

ـ أتساءل ما إذا كانوا سينشرون هذه الكلمة تحت صورته مرة أخرى.. لقد ضحكنا كثيراً على هذا التعليق.

ـ صحيح؟ ومن أنتم؟

ـ أنا وميل بالطبع.

أحست شيلا وكأن أعماقها قد تحولت إلى كومة من الجليد.

أكملت فيونا:

ـ أنت فتاة مضحكة.. أحياناً يجعلني ميل أضحك لقصصه عنك حتى منتصف الليل.

أيتكلم عنها مع فيونا؟ وتذكرت الأشياء التي قصتها عليه، ولم يكن فيها شيء مضحك، بكل تأكيد، لكن بالنسبة لناقدة، كانت ستبدو غبية أحياناً..

ثم هناك اليوم الذي سألها إذا كان بالإمكان أن يأتي إلى غرفتها.. لكن من غير المعقول أن يخبر فيونا بهذا.

هناك ما يبرق ويومض في رأسها وكأنه الألعاب النارية.. وتذكرت الليلة التي سبقت سفره، حين توسلت إليه أن يضمها ويحبها..

وقالت فيونا:

ـ لا داعي للاتصال به لإخباره عن حفلة اليوم.. بإمكاني إيصال أية رسالة له. سأراه في الغد.. لأنني سأسافر لأنضم إليه.. تأخرت فقط لأحضر حفلة الزفاف. وأنا سعيدة لحضوري، كما أنك قد تدبرت كل شيء بروعة.. على فكرة: ماذا ستفعلين بنفسك الآن؟

توقفت عن الابتسام وأكملت:

ـ أعرف أن ميل يشفق عليك.. لهذا سيترك لك جزءاً من القصر، وأعرف أنك الآن نسيبة له.. لكنني سأعود معه إلى هنا، وأفضل أن لا أراك.

كادت شيلا تقول إنها هنا لأنها مضطرة للبقاء، لكنها سمعت نفسها ترد بحدة:

ـ أوه.. أغربي عني.

أجفلت فيونا، لكنها أكملت بلؤم:

ـ سنتصل بك من أميركا، لنعطيك إنذاراً لترك المنزل!

ـ افعلي ما شئت.

وتقدمت إلى أقرب مائدة لتأخذ كوب عصير وترتشفه دفعة واحدة. ثم فتشت عن طوني لتقول له:

ـ أظنني قد أذهب معك.

إنه عائد الليلة إلى لندن، وفي سيارته متسع لها. وقال لها:

ـ فكرة ممتازة.. تعالي لقضاء إجازة.

سألت السيدة هارتس وهي تلحق بها إلى غرفتها:

ـ مجرد إجازة.. أليس كذلك؟

توقفت شيلا عن الادعاء، واعترفت:

ـ سأجد لنفسي عملاً هناك على الأرجح.. وأنا واثقة أن ميل لن يعترض.. وأنت مخطئة في شأن تلك الليلة. لقد جاء إلى غرفتي ليتأكد أنني على ما يرام بعدما حدث لي بسبب العاصفة، كما فعلت أنت.. لكن، كل ما قصده هو الاطمئنان عليّ.. ثم خرج.. وهو يحب الآنسة أيمز، وليس أنا.

ردت السيدة هارنس بعجب: يا للسماء!

وضحكت شيلا:

ـ إنهما هكذا.. أليس كذلك؟ سأستعير حقيبة الملابس.

أحضرت لها السيدة هارنس إحدى حقائب سالي، ثم خرجت تهز رأسها.. فسارعت شيلا إلى توضيب ثيابها داخل الحقيبة.

لم تكن راغبة في الرحيل.. عرفت الآن أنها بقيت لأنها تريد البقاء، وليس لأنها خافت أن يؤذي ميل أخاها. إنها تتهاوى في وادٍ سحيق على عكس ما تصورت، ومغادرة هذا المنزل تعني انتزاعها من بين ذراعي حبيبها. إنها تحبه، بشغف تام، ولا تصدق أنه جعلها تبدو غبية هكذا أمام فيونا. كما أوحت لها. لكنه تكلم عنها أمامها، ولا بد أنهما ابتسما معاً لقصة الصحف وفيونا ستنضم إليه غداً.

لا تظن شيلا أنه سيطلب منها مغادرة المنزل. على الأرجح، ستبقى، إلى حين الانتهاء من إعداد شقتها في القصر. لكن، أقصى ما تعد نفسها به هو أن يزورها في غرفتها.. فميل ورايت ليس رجلاً لامرأة واحدة، ولا يمكنها القبول بهذا.

لو أمكن المحافظة على مسافة بضع مئات من الأميال تفصل بينهما لتلاشى الخطر المحدق بها من رؤيته، ولتلاشى خطر تجاوبها معه كذلك.. ولطالما تجاوبت حين كان يناديها «إيلا».. وتذكرت وهي تقفل الحقيبة، وتضغط الغطاء أمراً آخراً، تذكرته ينادي: «إيلا هل أنت بخير؟» ولقد استجابت له رغم ابتلاعها حبتين منومتين. هو الذي أيقظها وليست العاصفة.. ولو بقيت في هذا المنزل، فإن فرصتها في مقاومته ستكون كمثل فرصة الإبرة التي تقاوم المغناطيس.. شدت الحزام حول الحقيبة وحملتها

إلى الردهة في الأسفل.

عندما سيعود ميتش وسالي من شهر العسل، سيكون لها مكان في شقة ميتش.. ولطالما نامَ أصدقاؤه في جحر الأرنب هذا، الذي هو شقته.. لدارلين، صديقته السابقة، مكان للنوم دائم هناك، مع أنهما منفصلان منذ شهور طويلة.

أدخلت دارلين شيلا إلى الشقة مع بزوغ الفجر. كانت شيلا تنام في المقعد الخلفي لسيارة طوني حين توقف خارج المنزل.. وترجلت متثائبة من السيارة.. بقيت مستيقظة حتى قبل نصف ساعة من بدء الرحلة، ولكن الإرهاق جعلها تطبق عينيها.. لحظة فتحتهما تذكرت أنها ستترك ميل.. لذلك حين توقفت عن التثاؤب، عضت شفتها كي تكتم صرخة حزن.

كان النعاس يبدو على دارلين كذلك.. كانت ترتدي روباً رجالياً بني اللون، مربوط عند الوسط، وابتسمت لشيلا، التي كانت قد اتصلت بها مسبقاً لتخبرها بقدومها.. وقال طوني:

ـ سأحضر لأصطحبك إلى الغداء.. أيمكنك هذا؟

أوصل طوني الحقيبة إلى المدخل، وأجابت:

ـ أجل.. بالطبع.. شكراً لك.

قالت دارلين وهي تدلها على الطريق عبر السلم المظلم:

ـ فتاة رائعة.. أليس كذلك؟

ـ من؟ سالي؟ أجل.

ـ سأعمل معظم يوم الغد.. عليّ أن أؤدي دوراً في المسلسل التلفزيوني الذي أخبرتك عنه، لكنني مسرورة لمجيئك. سنتمكن من التجول معاً.

أخرجت مفتاحاً من جيبها وأعطته لشيلا.

كان المفتاح لجناح ميتش وسالي، ودخلت شيلا رأساً إلى الفراش، وبكت إلى أن نامت.. أحست بالراحة لتمكنها من البكاء، ولا بهم أن تنبلل الوسادة، فلديها أسبوع كامل لتجففها.. لكنها حين استيقظت بعينين متورمتين تمنت لو أنها منعت بعض الدموع.. فهي لم تساعدها كثيراً، فلا زال العالم يبدو لها أسوداً غارقاً في الظلام معزولاً.. شعرت بأن الرغبة في الحياة والمقاومة قد تخلت عنها

ظنت نفسها قادرة على مقاومة فيونا، وأنها ربما، ربما فقط، تتفوق عليها.. لكن، سيكون هناك على الدوام فيونا أخرى، وشيلا أخرى.. فميل ورايت، لا يلتزم بشكل دائم. وهو ليس بالرجل الذي خلق للزواج.. اليوم سيقابل فيونا، وقد تكون الآن بين ذراعيه.. مجرد التفكير بهذا مؤلم جداً.. حتى أن الجحيم لا يمكن أن يكون أكثر سوءاً منه.

كانت الغيرة تمزقها قطعاً صغيرة.. وليس هناك طريقة تجعلها قادرة على العيش مع هذه الفكرة.

دقت دارلين الباب ووجدته مفتوحاً، فدخلت:

ـ جئتك بفنجان شاي.. أنا ذاهبة إلى الأستديو الآن.

نظرت إلى شيلا، وصرخت مذعورة حين رأت وجهها المنتفخ وعيناها الحمراوان.

ـ أوه.. تبدين مريعة!

شهقت شيلا، ومدت يدها لتأخذ منديلاً ورقياً من حقيبة يدها، ودفنت أنفها فيه:

ـ يبدو أنني أصبت بالرشح.. شكراً للشاي.. يبدو لي يوماً جميلاً.

إنها ترى الشمس، لكنه لن يكون يوماً جميلاً. ما إن خرجت دارلين، حتى خرجت شيلا من السرير تحاول إصلاح ما أفسده البكاء. غسلت وجهها، ووضعت كمادات باردة على عينيها، ثم تزينت، وعندما وصل طوني ليصطحبها إلى الغداء كانت قد أصبحت طبيعية. وشيء آخر توصلت إلى قرار حاسم بشأنه: لن يكون هناك دموع بعد الآن.

تمنت لو أنها لم توافق على قضاء ما تبقى من اليوم مع طوني، مع أنه يعجبها، فمن غير العدل أن تتركه يظن أنها جاءت إلى هنا لتكون معه.

كان اليوم يوم سبت، ولا عمل لديه.. تناولا الطعام في مطعم قرب النهر.. وفي المساء ذهبا معاً إلى المسرح، ثم تناولا العشاء في مطعم صغير.

كان قد أخذ على عاتقه مهمة إدارة الحديث، وابتسمت شيلا وهزت رأسها، متمتعة بوجودها معه.. لكنها ستكون سعيدة مع أي صديق آخر، كما ستشعر بالسعادة نفسها مع أي فتاة أخرى.. أحست بشيء ذكرها بسحر

الحياة التي كانت لها مع ميل. ولم تشعر إطلاقاً بما يشدها إلى طوني، على العكس مما يحدث لها عندما تكون مع ميل.

بعد العشاء، وهما يتناولان القهوة، قالت إنها تريد العودة إلى شقة مينش.

كانت الأضواء تملأ البيت، والتلفزيون دائر.. كان باب دارلين مفتوحاً.. وما إن وصلت شيلا إليه حتى قفزت دارلين من مقعدها الذي يمكنها منه رؤية أي قادم وناداتها:

ـ هاي..! هناك شخص ينتظرك.

ـ من؟

ـ لا أعرف.. لكن، إذا كنت لا تريدينه، عودي إليّ وأخبريني.

يمكن أن يكون أياً كان.. لكن لا يمكن أن يكون هو.. مع ذلك سارعت عبر الممر لتجد ميل يقف قرب المدفأة في غرفة جلوس مينش، ينظر إليها من تحت حاجبيه الكثيفين المعقودين.. بدا كما كان يبدو يوم تعطلت السيارة ولم تتصل به لتقول له إن سالي سالمة. كان آخر شخص في العالم تتوقع أن تراه هنا.. لكن قلبها تحرك وخفق حين رأته. وقالت بغباء:

ـ أنت في أميركا.

ـ صحيح؟

واضح أن خطته قد تغيرت، وعاد باكراً، لكن ما الذي جاء به إلى هنا في مثل هذا المزاج العاصف؟

كان طوني خلفها تماماً.. ولحق بها وهي تدخل، وقالت:

ـ هذا ميل ورايت.. وهذا طوني مارش.

قال ميل متجهماً:

ـ عمت مساء سيد مارش.

تقدم نحوه، ولم تلاحظ شيلا فيما إذا كانا قد تصافحا، مع أنه تراجع مذعوراً وخرج وأقفل الباب وراءه.. كانت واثقة أنه سيقف في الخارج يتساءل عما حدث، وما إذا كان عليه أن يفتح الباب مجدداً، لكنها تعرف أنه لن يفعل.

لا بد أن شيئاً مهماً قد جاء به إلى هنا. شيئاً جعله يبدو متعباً،

ومحطماً . . لا بد أن حادثة ما قد حصلت . . ميتش وسالي في تلك السيارة . . ميتش سائق مجنون . . وقالت مرتجفة :

ـ ما الأمر؟ هل حدث شيء مريع؟

ـ لا . . ولن يحدث شيء . . لكنني جئت لآخذك .

ـ تأخذني؟ تعيدني . . أهذا ما تعنيه؟ أوه . . انسى الأمر . فأنت لن تؤذي ميتش وسالي، ولست بحاجة إلى رهينة وعلى أي حال، أظنهما سينجحان .

ـ هذا عائد لهما، وفي هذه اللحظة لا يهمني أمرهما أبداً .

إذن، لا بد أنه جاء لأنه يريدها، وميل ورايت يحصل دائماً على ما يريد . . ولولا أنها لا تهتم الآن، لكانت سعيدة أن تعود معه .

أمسكت أقرب شيء لها، حافة الطاولة، تقول :

ـ جئت إلى هنا لأبتعد عنك .

ـ ألا زلت تلومينني لموت عمك؟

ـ لا . .

ـ إذن لماذا لا تريدينني أن أحبك؟

ـ لأنني . . .

وبللت شفتيها . . لأنها لم تستطع أن تقول : «لأن هذا سيكون بالنسبة لك علاقة عابرة، بينما هو بالنسبة لي حباً حقيقياً، وأنا من سيتحطم قلبها» . . عوضاً عن هذا قالت بخشونة :

ـ لأنني لا أظن على المدى الطويل أنها فكرة جيدة، ولأنني لا أريد هذا .

تشبثت بالطاولة بقوة لتمنع يديها من الامتداد إليه . . بدا لها أن كل عرق في جسدها يناديه، بينما كان يقف يراقبها وعيناه السوداوان مركزتان عليها . . وفكرت أنه يقرأ أفكارها . . وبدأت تهذر :

ـ الليلة التي سبقت سفرك، ليلة العاصفة، أذكر ما قلته لك . . لكنني كنت قد تناولت حبوباً منوّمة . و . .

ـ شاهدت الزجاجة . . ويدهشني أن تتذكري من أنا . . كنت تتكلمين في نومك .

هذا صحيح . . لكنها كانت تريده، صاحية أم نائمة .

ـ كم . . بقيت؟

ـ حتى انتهاء العاصفة . . لكن لا تقلقي، لم أبق في فراشك . لقد نمت دون حركة، وجلست أنا في الكرسي أشرب فنجان الشاي الذي أحضرته السيدة هارتس لك .

ـ هذا لطف منك .

استدارت حول الطاولة وسألته :

ـ هل أحضر لك فنجان شاي؟

ـ لا . . شكراً لك .

ـ كما تريد . . لقد تمت حفلة الزفاف بشكل جيد . . وبدت سالي رائعة . . ولكن من المؤسف أنك لم تحضرها .

ـ صحيح؟

ـ أعتقد أنها الآن أصبحت شقيقتي . . وسأحب هذا . . وأعتقد أنك بالمقابل أصبحت شقيقي .

ـ لا مجال لهذا . . لن أكون أنا وأنت أخ وأخته .

قفزت مجفلة : ولماذا؟

بدا لها هذا وكأنه جزء من رواية غرامية قديمة الطراز . وسألت :

ـ لماذا لا يمكننا ذلك؟

قبل أن تستطيع أن تتحرك أو تتكلم، كانت بين ذراعيه . . وقد غمرها الشوق إليه، بحيث أنها استجابت بشغف وحشي . . وعلى الفور حاولت أن تقاومه . .

لكنه استمر في عناقها، وضمها إليه بشكل عنيف، لكنها جمدت نفسها متصلبة وحاولت التخلص من قبضته، وحين تركها نظرت إليه بعينين معذبتين وقال :

ـ هذا هو السبب . .

كان يعرف أنه قادر على زلزلة أعماقها إلى أن تصبح أبعد بكثير عن التعقل، مع أنها لا زالت تقاومه وتقاوم نفسها وأكمل :

ـ في يوم ما، سأتسلل إلى داخل رأسك وأحطم كل ما أجده يصرخ في وجهي لأبقى بعيداً .

ـ ولماذا؟ لا يهم بهذا القدر أن تقول لك امرأة واحدة «لا» . . وماذا عن

فيونا؟

ربما تكون هي أول من قال له لا، وربما يكون هذا سبباً كافياً يدفعه لتحطيمها.. وأجاب:

ـ ماذا عنها؟

ـ حسناً.. أنت هنا، وهي تريد السفر اليوم لتنضم إليك.

ـ هذه المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكلام.

ـ أتعني أنك لا تعرف؟

ـ لا أعرف.. ربما مررنا ببعضنا في الجو.

هذا ما جعلها تبتسم، وأدركت أن فيونا كانت كاذبة في كل ما قالته.. فسارعت للقول:

ـ كانت في حفل الزفاف، وقالت لي إنكما ضحكتما كثيراً معي.

رد بأسى:

ـ وصدقتها؟

قالت بهدوء:

ـ بدا هذا ممكناً.. فأنت لا زلت تراها كثيراً.

ـ ومن قال لك هذا؟

ـ هي قالت، وأشخاص آخرون أيضاً.

لا بد أنهم أشخاص أصغوا لكلام فيونا. وقال لها:

ـ لقد التقينا، لكن دون موعد، وبكل تأكيد ليس عن قصد من جهتي. لكننا لم نبق وحدنا منذ تركت منزلي تلك الليلة. ومن المستحيل تحت أي ظرف كان أن أذكرك أمامها، أو أمام أي شخص آخر.

ـ أوه.. أنا مسرورة لهذا.

كانت أكثر من مسرورة.. كانت تهذي من الفرح.. ولو عانقها مجدداً لن تتراجع أو تحاول المقاومة.. جلست على الصوفا، وانتظرته أن يتقدم ويجلس قربها.. لكنه بقي واقفاً.. وسأل:

ـ هل اهتممت كثيراً حين قالت فيونا إنها مسافرة للانضمام إلي؟

ـ أجل.

ـ عظيم.. إذن قد يكون لديك فكرة عما أحسست به حين قالت السيدة

هارنس إنك ذهبت مع رجل كان على اتصال دائم بك.. وأنك لن تعودي.. وستنضمين مع أخيك..

ـ وهل عدت ليلة أمس؟

ـ اتصلت بي، وعدت صباح اليوم، وسأعود في الغد.

بدا لها أن ما قالته السيدة هارنس هو الذي أعاده.. وهذه فكرة مقلقة، وشهقت:

ـ هل جئت تتكلم معي فقط؟

ـ أجل.

ـ لكن، كان بإمكانك التكلم معي عبر الهاتف.

ـ وبإمكانك إقفاله في وجهي.. وأنا لا أحب أن يخذلني أحد.

ضحكت، غير مصدقة:

ـ لا أستطيع الاستيعاب.. سالي قالت إنك لم تسع وراء أحد في حياتك.

ـ لكنني سألحق بك إلى نهاية العالم.

تقدم إليها بنظر من فوق، طويل القامة جداً، أسمر البشرة، وأحست بثوبه وسطوته، وعرفت مدى ما تشعر به نحوه، وقال بصوت ناعم:

ـ وسأجدك، ولو انتهى بي الأمر إلى الزحف لأصل إليك.

ولن تتاح لها فرصة للهروب منه.. ملاحقته لها ستكون أمراً حتمياً، لكنها ما كانت لتهرب لو كان في مقدورها ذلك. وربما ما كانت لتهتم بما سيحدث لها فيما بعد.. لكن: هل كل هذا لمجرد إعادة امرأة أخرى؟ قالت بمرارة:

ـ لن يكون امتلاكي صفقة كبيرة لك.

ثم ابتسمت.. لكنه لم يبتسم وهو يرد:

ـ ستكون أكبر صفقة عرفتها.. أحياناً حين تنظرين إليّ تتصورين الفرصان، لكن حين أنظر إليك، أرى زوجتي.

شهقت:

ـ زوجتك؟

ـ في يوم ما ستفكرين بالزواج بي.

كانت تعرف أنه يريدها كعشيقة، لكنها لم تكن تدرك أنه يريدها إلى الأبد.. وسمعت نفسها تهذي:

ـ منذ متى وأنت...؟

ـ منذ متى عرفت أنني أحبك؟

لفظ كلمة أحبك بوضوح وكأنه شيء لا يقبل النقاش من قبله على أي حال، وهزت رأسها، فجلس إلى جانبها، وقد عقد حاجبيه ليفكر برد جدي:

ـ ربما في القصر ذلك الصباح، بعد أن أدركت كيف نجوت من الحريق، وفكرت أنني ما كنت عرفتك أبداً.. وعندما وجدتك هناك، حية، دافئة، تتنفسين، بدا لي شيئاً عظيماً، حتى أنني كنت مستعداً للركوع شكراً لله من أجل ذلك.

تذكرت كيف مد ذراعيه لها في المطبخ المحروق، حين كانت ترتجف، وأحست بقوته وهو يمسك بها.. ساعتها أيضاً، كانت بداية الحب بالنسبة لها.. وأكمل:

ـ لكنني أصبحت متأكداً أكثر يوم تأخرتما في الضباب تلك الليلة.. اتصلت بالجميع، في كل مكان ظننتكما فيه.. ثم اتصلت بكل محطة للبوليس، بكل المستشفيات، ظننت أنكما تعرضتما لحادث.. وحين وصلتما أخيراً..

ـ بدوت وكأنك على وشك أن تخنقني.

ـ هذا صحيح.. وأعانقك فيما بعد.

ـ ظننتك قلقاً على سالي فقط.

ـ كدت أفقد عقلي من القلق عليك! وكنت قلقاً على سالي بالطبع لكن الأهم أنت.

امتلأت عيناه بتألق غريب وأكمل:

ـ الله وحده يعلم، أنك ستكونين أنت دوماً.. حين قلت لي إن سالي ستتزوج أخاك.. صدمني ذلك في البداية لأنك كنت تعرفين ولم تخبريني.

ردت بسرعة وبأنفاس متقطعة:

ـ لم أكن أعرف، صدقاً.. لم أكن أعرف.

وابتسم:

ـ فكرت بالتالي أنك ستتركيني بعد زواجها، ولا يمكنني تحمل الابتعاد عنك.

ـ كنت تحتاج إلى رهينة؟

ـ كنت أحتاج إلى وقت.. كان عندك ذلك الحكم المسبق القاسي ضدي، وكنت آمل أن أزيله، بالتدريج.. حتى أنني لم أتصل بك وأنا غائب.. أملت أن تتصلي أنت بي لكن، حين لم تتصلي، انتظرت إلى أن تمكنت من الكلام مع سالي كي يبدو الأمر عفوياً.. ثم قالت لي السيدة هارتس إنك رحلت، وعرفت أن لعبة الانتظار ليست ناجحة.

كان خائفاً من البوح لها بحبه! وهذا جنون يشبه الطريقة التي تصرفت هي بها. وقالت:

ـ حين سألتني أن تجيء إلى غرفتي.. أتذكر؟

ـ أذكر جيداً!

ـ حسناً.. لم يكن السبب أنني لا زلت أرى فيك القرصان، بل لأنه قيل لي إنك لا زلت تقابل فيونا، وأنا بالنسبة لك سهلة المنال لأنني أعيش في منزلك.

ـ من قال لك هذا؟

كائناً من يكون القائل، فهو لا بد عدو خطير.. وبدا وجهه قاسياً كالصوان.. هزت كتفيها.. لن تذكر له أي أسماء.. فهذا لم يعد يهم.. وقالت:

ـ حسناً.. لقد دخلت غرفتي، وها أنت الآن هنا.

ورمت نفسها بين يديه، فضمها بشوق ولهفة حقيقي. فيما هي مستسلمة له بهدوء، تمتم:

ـ قولي إنك تحبينني.

ـ أحبك.

ـ وإنك ستسافرين معي غداً؟ فسأبقى هناك لثلاثة أسابيع أخرى.. ويمكننا الزواج هناك، أو حال أن نعود.

حين هزت رأسها رفضاً.. قال بصوت أجش:

ـ أرجوك.. أرجوك إيلا.. أتوسل إليك.. تعالي معي.

لم تكن تريده أن يبدو ذليلاً وهو يتوسل.. وقالت تشرح له الأمر:

ـ كل ما يمنعني أنني لا أملك جواز سفر.. ولن تتمكن من تدبير أمر هذا في الغد.. أيمكنك؟

ـ لا..

ـ ولكن الوقت سيبرهن لك أنني أستحق أن تنتظريني وأن تكوني في المطار لدى عودتي.

ـ أنا مستعدة لانتظارك طوال حياتي..

اقترب منها يعانقها فبادلته عناقه بشغف ورفرفت فوقهما أعلام الحب المشعّة.

* * *

تمت

الباقة المقبلة من أحلام

www.liilas.com

{doode}